طيول الظلام

ملحوظة: حقوق الطبع جميعها محفوظة للمؤلف
عنوان الكتاب: طبول الظلام
اسم المؤلف: إبراهيم الأعاجيبي
تصميم الغلاف: فلاح العيساوي
التنسيق الداخلي: فلاح العيساوي
البريد الإلكتروني: fffhh9@gmail.com

الطبعة الأولى
١٤٤٠ هـ ٢٠١٩ م

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (٢٢٥٧) لسنة ٢٠١٩

حقوق الطبع والنشر لهذا المصنف محفوظة للمؤلف، ولا يجوز بأي صورة إعادة النشر الكلي أو الجزئي، أو نسخه أو تصويره أو ترجمته أو الاقتباس منه، أو تحويله رقمياً و إتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من المؤلف أو الناشر.

إبراهيم الأعاجيبي

طيول الظلام

رواية

٢٠١٩

الإهداء

إلى سوريا، شعباً، أرضاً، سماءً، بحراً،
وكل شيء فيها...
أهدي إليكم هذا البوح الخالص
والمشاعر المرهفة
آمل أن تلقى قبولاً حسناً عندكم.

إبراهيم

الكابوس المخفي

بلغَ أخي عصام من العمر ثمانية عشر ربيعـًا، عندما عزمَ أن يلجأ إلى السلك العسكري، كان مولعـًا بالقوة معجبـًا بجدنا، الذي كانَ قائداً لفرقة قتالية في الجيش، قصص جده البطولية تستهويه، رغم كره والده لمهنة العسكر والأمن، لكنه قرر وعزم على أن يمضي إلى ما وطن نفسه عليه، عرض فكرة تقدمه إلى الجيش على والده، فلما سمع الوالد ذلك منه، انتفض مذعوراً مهدداً:

– إياك أن تُعيد هذا الأمر أبداً، لم ولن أقبل أن يلتحق منكم أحدٌ في سلك الجيش! فأخذ أخي يتودد أبي بكل لطف، لكنه لم يجنِ من تلطفه سوى الرفض والرفض المطلق، تمادى أخي بعزمه وقرر أن يذهب ولا مندوحة من ذلك، قرَّر والدي أن يطرده لتحديه أمره، أخي معجب بهذه المهنة أيما إعجاب، والدي يكره ويمقت هذه الوظيفة، لأن لديه ذكريات سيئة عن الجيش! أراد الأبُ أن يُجنب أولاده الاقتراب من السلك العسكري لكنه يفاجئ بهذا الفتى، الذي يلح في الذهاب والتطوع إلى الجيش، بين إصرار الفتى وتعنت الأب تدخلت الأم، فلم تفلح في أقناع أحدهما في

شيء، قرر والدي أن يطرده، واستقبل الابن هذا بألم ومرارة قائلاً:

- ألم يكن جدي فخراً لنا؟ ومن أحرى مني وأنا الحفيد الأكبر لأعيد مجده العظيم.

- لم يكن فخراً لأحد، بل كان لنفسه فقط، قالها الأب بكل عصبية.

- لأنك كنت تخشاه!

- أخرس، قطع الله لسانك يا قليل الأدب.

- هذه الحقيقة يا أبي وان كانت قاسية.

- الحقيقة التي علمتك إياها أمك، تعسًا لك ولها.

- لأنهُ أبي هكذا تقول.

- أخرسي أنتِ، فأنتِ رأس الأفعى.

- سأمضي يا أبي.

- إلى الجحيم، مصحوبًا بغضبي ودعائي عليك بألاّ تنجح مساعيك، وألا تعود سالماَ.

أخذ يدفعه بيده حتى تدحرج أخي أرضًا، إخوتنا ينظرون له ولكن بلا حيلة لهم أمام غضب والدهم، أخذ أبي يضربه حتى مضى وراءه إلى خارج الباب، وبعدها رجع وهو يلعن بالويل والثبور عليه، وعندها مضى الفتى ولم يعد.

والدي يكره الجيش لعقدة في نفسه، ولتاريخ يعود إلى أيام والده، عندما كان مطارداً طوال عمره، جدي كان شجاعًا،

وزعيماً وطنياً ممن فدا الوطن والشعب بنفسه، قضى ثلثي عمره وهو يجاهد ويناضل للدفاع عن الاستقلال الوطني، في ذات يوم بينما هو عائد، ليرى عائلته وأبناءَهُ، فُوجئ بكمين نُصب له، وقع أسيراً بيد الجيش، ومضوا به إلى السجن، وما هي إلاّ ثلاثة أيام حتى أصدرت سلطة الاحتلال حكمها الجائر عليه بأن يعدم شنقاً، ومن يومها كره والدي الجيش والعسكر، ولم يغير نظرته الحاقدة على الجيش بكل تاريخه!

أخذ عائلته ومضى إلى الريف، ليبتعد عن المدينة وذكرياتها المؤلمة التي تحز في قلبه، أراد أن يبعد أبناءَهُ عن العنف والدم، لكنه يفاجئ بابنه الكبير الذي أولع بالقصص التي تسردها له أمه عن والدها، فجده لأمه كان قائداً كبيراً وممن يوكل له في المهمات الصعبة، أخذت تملأ دماغه بالقوة والوجاهة والمكانة المرموقة، فأعجب الفتى بتلك الحماسة والرجولة التي يتصف بها جده.

لم يظهر والدي تأثره بعصام الذي عصى أمره أمام الجميع، ولكنه كان يبكي عظيم البكاء وأمضه حينما يجن الليل عليه، ومن عادته أن يجمعنا حول مائدة الطعام ، منظرنا مجتمعين كان يعجب أبي، وذات يوم دخلت عليه أمي فرأته ينشج من فرط بكائه! ولما سألته كتم عنها وأحجم، أخذ يوبخها

ويشتمها، وبين أخذ ورد تنهض منه وتمضي إلى غرفتنا نحن البنات لتنام عندنا، لتتجنب غضبه وشتائمه التي لا تنفك.

ما اجمل الصباح في القرية، تشعرُ بالهدوء والمرح عندما تستيقظ على تغريدة بلبلٍ، فتعقبها زقزقة مرحة من العصافير ثم سكون قصير أو طويلٍ، ويرتفع صياح الديك في مكانٍ ما، ويمر قطيعٌ من الأبقار على الطريق يتبعه صبيان صغار، وهم ينشدون أغنية ريفية لها إحساسٌ شجي، القرويون لهم القدرة على تصوير الفرح والحزن بصورة جداً مؤثرة.

يمضي أبو عصام إلى مزرعته عند أول الفجر، وقد لحقه أولاده وما زالت أجفانهم مغمضة بعد، يصل إلى أرضه وقد هش وبش لمنظرها البهيّ، فالأرض على وشك أن تعطي ثمارها، فموسم الحصاد قد أوشك، أمسك منجله ومضى يحصد، وأبناؤه معه كلٌ ومنجله وصندوقه الذي يجمع به المحصول، بقوا في حصادهم وعملهم الدؤوب حتى أقبلت عليهم نرجس وبيدها إفطارهم، فرحوا لمقدمها وحالما وقعت نظراتهم عليها حتى رموا ما بأيديهم وأقبلوا مسرعين، لأن نداء المعدة لن يقاوم! وضعت لهم إفطارهم وأقبلوا بنهم إلى الطعام، سكبت لهم أقداح الشاي، وأخذت تكلمهم وتجاذب الحديث معهم، فهذا يداعبها وذاك يلاطفها وآخر يخاصمها، تكلمهم عن حصاد هذه السنة، يفرح الأب بهذا الموسم لأن الأرض قد أثمرت أكثر مما

يُتوقع، فرحت وبداخلها خوف من قادم سيحمل في طياته أهوالاً وأهوالا، علينا أن نحمد الله على هذه النعمة ليوم ربما تفقد به، دوام الحال من المحال، كما تقولها الحكمة، أليس كذلك يا أسماعيل، نعم كما تقولين عزيزتي، وكاد الطعام أن يخرج من فمه لكثرته، فضحك الجميع لمنظر فمه وهو مملوء، فيعود كل منهم إلى عمله وتقفل هي البيت راجعة.

تقع القرية في ريف حلب الجنوبي، حيثُ الطبيعة الخلاّبة والساحرة، والأرض الخصبة للزراعة، والمكان البهيّ الجميل، القرية هي إحدى القرى السورية الغنية بمواردها الطبيعية والزراعية، تشتهر بزراعة الحنطة والشعير وبعض الفواكه كالحمضيات، لأن مناخها متنوعٌ فهو شبه قاري، لأن حلب تضُم السهول والهضاب والجبال والأراضي الزراعية الشاسعة، وكل هذا الفضل يعود إلى طبيعة مناخها وطبيعتها التي خُلقت عليها، يسكن هذه المدينة قوميات مختلفة، وبها تنوع ديني وثقافي وسياسي، الجميع يحب الجميع، وتخالهم كأنهم أسنان المشط، تُصنف مدينة حلب بأنها من أهم المدن السورية، وهي عاصمة في سوريا، فإذن هي قِطبٌ مميزٌ، طبيعةُ سُكان القرى تتشابه بعض الأحيان في أغلب مناطق الريف أو ما يسمونه في الشام بالضواحي، نظام القرى الريفية يختلف عن نظام الحياة في المدن حيث التقدم ومواكب الحضارة والصناعة والتطور وهذا شيء طبيعي،

فالعقول ورؤى التفكير مختلفة، إن القروي يتميز بغلظته وشدته، وسرعة غضبه وربما سرعة استغلاله أيضـًا في بعض الحالات! هذه القرية التي تقع على أطراف الحدود الجنوبية لمدينة حلب هي أرضٌ زراعية وصناعية وحتى تجارية، إذ كثيراً ما تمُر عليها القوافل التجارية من تركيا إلى سوريا، وتشهد المدنية حركة تجارية واسعة النطاق، الانتماء السياسي لهذه المدينة كان في أغلبه نحو المركز إي إلى دمشق حيث المدينة الجامعة لكل السوريين وهي عاصمتهم التي يعتزون بها، ولعلّ هناك حركات تنشط تارة وتخفت أخرى من بعض الحركات السياسية، وحجتهم المطالبة بإقامة دولة لهم تجمع شملهم القومي، ولكن الفُرص لم تمكنهم من تحقيق طموحاتهم، ولم ينتبهوا إنهم بذلك يمزقون الشمل الوطني ويغيروا من الخارطة الديموغرافية لوطنهم، لأن الانتماءات يجب أن تذوب أمام الوحدة الوطنية، هذه الأحزاب تكونت وتشكلت، لكن قوة الحكومة وشموليتها في المركز كانت قادرة على صد هكذا مآرب وتفتيت اجتماعاتها، ليبقى النسيج الوطني ثابتاَ، كانت قريتنا ذات غالبية معينة وبمعزل عن التناحرات والخصومات السياسية، فهي تتمتع بمستوى معيشي فوق المتوسط أو أقل من ذلك، ربما قلة وعيهم السياسي وضعف طموحهم، أو معيشتهم المستقرة جعلتهم ينأون عن الخوض في السياسة

وألاعيبها، عائلة أبا عصام لديهم مزرعة وكانت تدُر عليهم من خيراتها ما يجعلهم في شغلٍ عن التدخل في أمور السياسة، فهم يعيشون في الغالب على الزراعة والتي هي مصدر معيشتهم العام.

كان والدهم يدعى عبد الكريم ومن صفاته الطيبة، الكرم والفروسية، وجهه بشوش على الأغلب، زوجته لا تشبهه في الطبع والمِزاج فهي قروية مزارعة منذ ولادتها حتى اقترنت بزوجها بعد أن هرب من المدينة وصخبها وما تركت في نفسه من أثر، جعلته يفقد ابنه البكر أيضاَ، عاش عبد الكريم وزوجته سمية في سعةٍ ورغد وحُب ووئام ردحاً من الزمن، أنجبا من الأبناء ثلاثة عشر بين ذكرٍ وأنثى، الأولاد: عصام وهو أكبرهم، إسماعيل، كامل، فتحي، سامر وعلي ومن البنات ناريا، دلال، فاتن، رقية، خولة، هدى ونرجس، العائلة تعيش منعمة وفي بحبوحة من العيش الرغيد، لديهم أرضٌ يزرعون بها الحنطة وبعض الحمضيات والأرض هي مصدر رزقهم الوحيد، حتى شب الشبان وكلٍ منهم بدأ يشق طريق حياته وفق ما يطمح إليه، أما البنات فأغلبهن ينتظرنّ اليوم الذي تُزف به إلى زوجها، حياتهنّ هي عبارة عن عمل وتربية الأبناء والمواشي لا أكثر، فالمرأة في القرى الريفية غالباَ لم تحلم بأن تكون مهندسة أو طبية أو معلمة لقلة معرفتها وسذاجة عقلها، فهي مقيدة في الريف ومتحررة في

المدن فطبيعي أن يكون تفكيرها بذات المنحى والتوجه العام لمنطقتها وطبيعة مجتمعها.

كان أبي يتمنى أن يدخلنا في المدارس ونتعلم، وهذا الهاجس دومًا ما كان يردده، وبالفعل كلنا دخلنا إلى المدارس، ولما وصل بعضنا إلى مرحلة من التعليم بدأت تبدأ ميوله وأهواءه، فهذا يريد أن يبقى مزارعًا مع أبيه وذاك يحلم بأن يكون ضابطًا في الجيش وذاك مهندسًا وذاك محاميًا، ولكنهم في الحقيقة قد انغمسوا وراء الحياة لتختار لهم الظروف ما تشاء، عصام ذهب إلى الجيش والتحق بإحدى تشكيلاته، إسماعيل دخل كلية العلوم، وأما كامل فدخل كلية الحقوق وتخرج منها حقوقيًا مميزاً، وأما فتحي فدخل كلية الهندسة، وسامر دخل كلية الآداب فهو يحب الأدب ويكاد يذوب فيه، أما علي وهو أصغرهم فلديه طموح أن يكون طبيباَ جراحاَ، فهو ما يزال في المرحلة الثانوية بعد، لأنه اصغر إخوته، وأما البنات فقد وصلت كلٍ منهن إلى مرحلة من مراحل المدرسة حتى بدأت تتكاسلً وتضعف همتها في مواصلة طريق التعليم، وبقيت تتعلم إعداد الطبخ والشؤون المنزلية، أما أنا فكنت الأثيرة عند أبواي لأني البنت الصغيرة في ترتيب الأبناء فطبيعي أن يفرض حبي على الجميع.

كانت نرجس جميلةُ الملامح، ذات بشرة بيضاء ناصعة، وقوام رشيق ليست بالطويلة ولا بالقصيرة، لديها شعرٌ طويل أسود فاحمٌ كأنه قطعُ الليل المظلم، تملك رقة وجاذبية ملكت إعجاب كل من رآها، طيبة، خلوقة، لديها إحساس مرهف، طموحة، وترغب في أن تتغير عن طبيعتها التي ولدت عليها، فلم يرق لها أن ترزح تحت عبء القيود التي تفرضها عليها طبيعة المجتمع القروي، فهي تواقة لمواصلة الدراسة لتحقق لنفسها مستقبلاً وعندها تتمكن من فرض نفسها على أهلها وذويها بثقافتها ووعيها، روحها بريئة كبراءة الطفل، وهذا ما حببها في عين كل من وقعت عينه عليها.

ذات يوم نمت متأخرة بعد أن أضناني التعب في الأرض، فجأة أنهض من فراشي، أفقتُ من حُلم رهيب أفزعني من نومي، وجعلني أصرخ حتى أسمعت كل إخوتي، أفاق الجميع على صدى صوت صراخي، هرع الجميع إليّ ليهدئوا من فزعي وهولي، احتضنتني أمي وأخذت تُتمتم وتتلوا عليّ بعض الآيات القرآنية لكي يهدأ قلبي، هدأتُ قليلاً وشربت قدحا من الماء، فرأيتُ نفسي تبتعد عن الكابوس قليلاً، حتى تلاشى الفزع الرهيب مني، وجدت نفسي في مأمن من الشر، إذ يحيط بي جميع أهلي وكلهم مستعد أن يفديني بروحه، وبعد أن هدأتُ، سألتني أُمي عن هذا الحُلم المفزع:

- رأيت أهوالاً وعجائبًا.
- ماذا؟
- كأن وحوشًا سوداء ضخمة، أقبلت عليّ وأنا أركض وأصرخ فلا أحد يلبي ندائي واستغاثتي، وحوش ضارية حجمها كبير ومخيف يا أمي، وكلما اقتربت مني أصابتني في جزء من جسدي.
- يا الله، كان الله معكِ حبيبة أمكِ.
- وإني لأعجب إلى جيراننا فهم يروني أصرخ وأستغيث بهم وهم يتفرجون وبعضهم ساهم في إرشاد الوحوش عليّ وبعضهم اعتدى عليّ وها هم ضربوني هنا وهناك، انظري... انظري.
- وبعدها.
- إني أطلب منهم مأوىً آوي إليه لكنهم أحجموا وتركوني أركض وأنا أصرخ من فرط جراحاتي التي تعددت.
- وماذا حصل بعدها.
- بقيت أركض وأركض حتى خارت قواي ووقعتُ مغشيًا عليّ.
- الجميع وماذا بعدها؟
- أقبلت الوحوش مجتمعة عليّ وأخذوا يفترسون جسدي حتى كدتُ أموت لأنهم مزقوا جسدي كله، وكل وحش

أخذ نصيبه من جسدي، فقُسم جسدي إلى أربعة أقسام والأربعة إلى ثمانية والثمانية إلى ستة عشر!

- الكل أصابه الرعب مما سمع، دعاها والدها أن تكمل.

- ولما رأيت أني ممزقة الأوصال، واستحال عليّ جمع أعضائي، أخذت أستنهض أعضائي بأنها للحظات كانت مجتمعة عندي، كيف هان لها أن تتركني وترحل!

- وثم ماذا؟

- قالت بعض هذه الأعضاء: الأمر لم يعد بيدنا بل نحن أصبحنا بيد المالك الحقيقي والذي هو من قطعنا عن جسدكِ فهو الذي يساوم علينا.

- ثم ماذا، الجميع يسأل بحالة وجوم وفزع

- أخبرتهم بأنهم أعضائي، ومكانهم لن يكون إلاّ في جسدي.

- وماذا ردوا عليكِ؟

- بكت بكاءً عاليا حتى بكى لبكائها أهلها.

- وماذا حصل بعدها؟

- تركتني ورحلت، والأدهى إن الوحوش أخذت أعضائي ولكنها رمتها هناك بعيداً، بعيداً... حتى إنها لم تستطع أن ترجع إليّ إلاّ إذا رحلت لهم أنا.

- وهل ذهبتي؟

- كيف لمن هي مقطعة الأجزاء أن تمضي، وكيف لمن هي جريحة وتنزف الدماء أن تمشي على قدمها؟
- وهل بقيت لديكِ قدمٌ يا ترى؟
- لم يبقَ شيء سوى الألم والعذاب ووجع الضمير.

وعندها بقيت أبكي وحيدة، بعدما تركتني الوحوش وأخذت كل ما على جسدي وحتى جسدي لم يسلم منها، بل عمدوا إلى تقطيع أوصالي، لكنها لم تتمكن من الاقتراب من شرفي لأنها تعلم إنه موتي وفنائي إن مسته يدٌ غريبة، وبعدها أخذت أبكي حتى أقبلتم عليّ بجمعكم، وإني لخائفة يا أخوتي، وهل سيحصل هذا على أختكم وفيكم نفس يخترق الرئتين؟

- ردوا بأجمعهم: لا والذي خلق النفس لن يكون هذا وفينا عينٌ تطرف.

فرحت لجواب وحماسة إخوتي لكني أضمرت خوفي من هذا الحُلم الرهيب، أخذت العائلة تهدأ من روعي، فالحلم ربما يحمل إشارات عن مستقبلي أو مستقبل عائلتي أو مستقبل بلدي! بعد مدة من الزمن اختفى منهم هذا الحلم ولم يعد يذكره أحد لكني لم أنسَ هوله أبداً.

أفيق من نومي ذات يوم وبعد أن أرخى الليل سدوله، أخذت أتأمل هذه السماء الصافية والقمر المنير، أفكر في طبيعة حياتي وما سأُحققه غداً في مستقبل أيامي، إن أصبحت

معلمة كما أهوى وأحب أن أكون، رأيت إنّ أخواتي لم تحظَ واحدة منهنّ بنصيب من العلم والمعرفة، أنا لا أحبذ أن أكون كغيري من أقراني، أتساءل هل سيقبل والدي وإخوتي أن أستمر في دراستي حتى دخولي الجامعة، يا الله كم تتوق نفسي إلى دخول الجامعة فأبدأ برسم أحلامي وأسعى لأُحققها، لم يقبلُ النوم عليّ، نهضتُ إلى الحديقة رأيت إن هذا الوقت قد هجع الجميع فيه، بقيت أتجول في الحديقة أرسم بأحلامي وأنظر لمستقبلي بعين الطفولة البريئة، بقيت هكذا حتى أدركني الفجر ولم أكن لأشعر به من فرط سروري وفرحي حتى بأحلام اليقظة، نهض والدي وثلاثة من إخوتي لأنهم يحبذون أن يخرجوا إلى الأرض عند أول الفجر، أخذوا يصبحون عليّ وأنا أرد الصباح بأحلى وأعذب كلام، لم يسألني أحد عن سبب استيقاظي في هذا الوقت المبكر.

بقيت تداعب عصفورتها وتراقص قطتها، ونسماتُ هواء الصباح تداعب شعرها وأبدو كأني ملاكٌ وأيّ ملاك! طفولتها ممزوجة بنكهة بريئة، وطيبة ممزوجة بغنج، انتظرت حتى تشرق الشمس لتذهب بعدها إلى مدرستها والتي تعتبرها أفضل مكان لها، تحب مدرستها أكثر من بيتها، لأنها تجد وطنها الحقيقي هناك وليس في منزلها، ترتدي ثيابها وتضع حقيبتها على متنها وتمضي تقطع الطريق، لتصل وهي

مملوءة زهواً وفرحـًا، تدخل إلى مدرستها وقد انشرح صدرها وعمت وجهها أسارير الابتهاج والفرح، كان الدرس سلوةً لها لأنها قد أعدته أمس على أحسن إعداد، وبقيت هي الوحيدة التي تشارك معلمتها إلقاء الدرس مما أثار حفيظة أترابها.

حنقت عليها أغلب أقرانها ولكنها لم تعرف أن تضمر حقداً على أية واحدة منهن، كانت أغلب لحظات يومها دؤوبة لا تعرف الكسل أو التكاسل، تسألها أمها كيف دروسكِ؟

- إنها أجمل شيء في حياتي.

- ولمَ كل هذا الحُب!

- إن العلم يا أمي حياة، فما أسعدها من حياة.

- وما الفائدة، سيأتي الرجل المناسب ليحظى بكِ وعندها لن تفكري بأي علم أو مدرسة.

- لا، لن أترك دراستي حتى لو كلفني أن أهجر الزواج.

- ماذا، تنذهلُ أمها وتصاب بالدهشة لكنها لم تعبأ لأنها قالت ربما تكون فتاة مراهقة لم تبلغ الثالثة عشرة بعد، فبالتأكيد ستغير من هذه الترهات وتمضي على ما مضت عليه أمها وأخواتها.

وبقيت تتجاذب الحديث الأم وابنتها عن هذا الموضوع الذي تخجل منه أغلب الفتيات، لكن نرجس لم تكن وقحة بل كانت أكثرُ وعيـًا وتفهمـًا من أن تحجم عن المناقشة

وتبادل الآراء مع أمها، هي نور البيت المشرق، هكذا كان يدعوا والدها، وكثيراً ما ردد مخاطبًا زوجته: سمية لقد أنجبتِ قمراً، سمية أنجبتِ ملاكًا بهيئة بشر، لم تمتعض أخواتها من هذه الخصاصة لأنهن كن أكبر منها ويعرفن أنها البنت الصغيرة فطبيعي أن تكون أثيرة عند الجميع وبالأخص والدها وأمها، كانوا يعيشون في سعة ورخاء ورغد من العيش، تساعد المرأة زوجها في الزراعة، وكنّ معززات، مُدلالات بظل والدهنّ وإخوتهنّ، أيامٌ جميلة وهادئة وناعمة كانت تعيشها أسرة أبا عصام، ولم يعكر صفو شملهم وفرحهم أيّ معكر، ظروف الحياة مستقرة وفرص العمل موجودة والجميع مشغولٌ بعمله ووظيفته.

جلست في ضحى أحد الأيام، بعد أن أضناها العمل في البيت وبالأخص بعد زواج ثلاثٍ من أخواتها، بقيت هي واثنتين من أخواتها يعملن في ترتيب شؤون البيت من غسل وتنظيف وإعداد الطعام، تفرقت ثلاث بنات من بيت أبي عصام وأمست كل واحدة منهن في مدينة، وكأن النصيب شارك في ابتعاد هؤلاء البنات عن عائلتهن.

كان أول عمل أقوم به بعد أن أفيق من النوم أن أتجه نحو الحديقة، وكنت دومًا أنهض مبكرة، جلست أداعب الورود وأتغزل بها وأشم عطر الياسمين، ورأيت أن وردة كُسرت

عن ساقها وجفت، سارعتُ إلى معالجتها وإعادتها إلى الأرض لتلتصق بها، وثم يعود الياسمين يعطي هذا الأريج الفواح الذي يشرح الصدر ويهدأ النفس ويداعب الفؤاد لكنه ليس كما كان قبل الكسر! عطره تبدل قليلاً ولربما طعم بجرحه، أرمق السماء بنظرة وأخرى، أتأمل ماذا سيحصل لهذه الورود إن جف ماؤها وكسر ساقها، سيبقى الياسمين مطروحًا على الأرض لتسحقه الأقدام وبعدها تأخذه الرياح الغادرة لتجففه من أريجه فيكون صلبًا لا حياة ولا عطر فيه.

أخذت أبكي لهذه الوردة التي جُرحت ولو كان لها لسان لربما صرخت من ألمها كما يصرخ الإنسان والحيوان عندما يصاب بجرحٍ ما، أخذتني سِنة من النوم لأحلم وأنا ما بين إغفاءة ويقظةً، حلمتُ أن يأتي اليوم الذي أكون فيه طبيبة ماهرة أعالج هذه الأمراض التي تعصف بقريتنا كل حين، وعزمت على أن أجند نفسي خدمةً لقريتي، ووعدت نفسي بأني سأقوم بإلقاء دروسٍ ومحاضرات على صديقاتي لكي أعلمهن ما المرأة وما حقوقها؟ وما الذي ينفعها وما الذي لا يليق بها؟ وما الذي يهينها ويسلبها طبيعتها الملائكية أو فطرتها التي خُلقت عليها.

هي بعمر الورود وتفكر بمستقبلها وترسمه بيدها وتخط بيراعها ما ستفعله غداً، لكنها ترنو إلى المستقبل بعين الرجاء ألاّ يخونها ويسلبها طموحها ويكسر ساقها كما كسر

الهواء ساق الياسمين أو يدٌ لا تعرف فائدته، أخواتها لم يصلن في الدراسة إلى مراحلها الخمسة الأولى، لم تحظَ واحدة منهن بنصيب من العلم والثقافة والإدراك، بل بقينّ كأيّ النساء من قريتهن التي تكون طيبة وقوية وماهرة في أمور البيت وتربية الأولاد، لكن نرجس كانت على غير أخواتها فهي تلحُ في الرغبة بالنهوض بنفسها والارتقاء بها، فهي جادة وتسعى لكسر القيود التي تكبل المرأة وتجعلها فريسة لمتاعب الحياة وظروفها القاهرة، فهي تتأمل الحياة كما يتأملها الفلاسفة ولربما زادت عليهم بعض الأحيان، تنظر لما حولها بنظر العلماء عند يتأملون شيئاَ ما، ساعة وأخرى وهي على حالتها غارقة في خيالها الذي ذهب بها ذات اليمين وذات الشمال، أخذها هذا الخيال بعيداً حتى حلّق بها في أعلى نقطة تصلها مركبة فضائية، فلم تنتبه من هذا الخيال إلاّ على أصوات إخوتها وهم ينهضون الواحد تلو الأخر، خاطبها إسماعيل:

- صباح الخير نرجس.
- صباحك عطر الياسمين أخي إسماعيل.
- لمَ أنتِ جالسة منذ الفجر؟
- مللتُ من النوم.
- أوه، تعالِ إذن لنشرب فنجان قهوة معـًا.

- تكرم عيناك، ذهبت مسرعة لتعمل لهم فنجان القهوة، شربوا فنجانهم ومضوا إلى عملهم في الأرض، بقيت هي شاردة الذهن، تتخيل أحلامها وتحاول أن تعيش أحلامها بصورة واقعية ولو للحظات!

تفيق أخواتي، ويبدأ الضجيج والعبث والصخب يملأ البيت، بعد زواج أخواتي ناريا ودلال وفاتن تغير البيت كثيراً، لأني كنت أعشق التآلف وروح الإخوة التي تسود بين الجميع، أرتدي ثيابي وأذهب إلى مدرستي وكأني وردة في موسم ربيعها من فرط سروري، أمضي في طريقي، أمشي على مهل وبخطى متزنة، رأسي مطرقٌ إلى الأرض، عندما أدخل إلى مدرستي أرى الأمل الذي يُلّوح لي عن بُعد، وأمضي إلى مكان جلوسي، أبدأ بسرد القصص على صديقاتي وهنّ يسمعنّ لي، وجميعهنّ معجبات بما أُلقي عليهنّ من قصص وحكايات سمعتي من جدتي أُمُ أبي، حتى تقبل المعلمة لتبدأ بإلقاء الدرس على الطالبات، كنت محط إعجاب كل المعلمات، فقد تنبأت لي معلمة اللغة العربية بمستقبلٍ مشرقٍ، وبقيت أتخيل هذا المستقبل الذي أرجو أن أراه بفارغ الصبر، وأقضي يومي وأنا ألعب وأمرح مع قريناتي وهنَّ بغاية البهجة والسرور، جميلة هي ملامح الأُنوثة، وبراءة الأطفال، فالمرأة هي جمانة وزهرة وليست بقهرمانة، فالمرأة هي أم الجيل، فينتهي الدوام وتعود البنات أدراجهنّ

إلى البيت، فأعود وقد أرهقني التعب وأضناني الجهد، أرجع إلى البيت ناحلة، الطريق الذي أقطعه من البيت إلى المدرسة طويل، وأنا أقضيه مشيًا ذهابًا وإيابًا، أرى أهلي وقد اجتمعوا على مائدة واحدة والجميع فرحٌ بهذا التجمع، فالأب يداعب زوجته، والأخ يلاطف أخته، والأخت تمرح مع زوجة أخيها، ولم ينقطع الكلام والضحك طوال فترة جلوسنا حول مائدة الطعام، كانت هذه الأيام هي الأجمل في كل سنين عمري، لم أشعر بذل ولم أتوقع أن يأتي يوم وتُذل وتظلم المرأة السورية، تزورنا أخواتي في كل شهرين مرة، ولكنّ على قصر هذا اللقاء إلاّ إنه يروي ظمأ الشوق لدي، لأرى أخواتي وأداعب أولادهن، قضيت شطراً من عمري وأنا البنت المعززة المدللة التي لا يرفض لها طلب، والجميع ينظر لها بعين الحُب والود لأني أصغر الإخوة والأخوات، ينتهي يوم ويقبل آخر ونحن على حالتنا، فقريتنا من القرى الزراعية التي تعمل وتكد طوال العام، المجتمع لديه عادات وتقاليد ورثها عن السلف، فبقيت متغلغلة فيه ولم تتركه، هذا في المجتمعات المنغلقة يصعب أيُّ تغيير، وبالأخص المدن القروية البائسة، أما في حياة المدينة فتكون الآراء حرة ومحمية، والتحرر الفكري على أوسع أبوابه، والكل يحترم الكل باسم الآدمية والمحبة، وعاشوا برغد طيلة ثلاثة عقود من زمن جدي حتى وصلت إلى والدي،

الحياة في القرية هي أبسط من حياة المدينة المعقدة وظروفها الصعبة، فهنا تكمن البساطة في مجمل طرق المعيشة، عشتُ بروح متأملة، وحالمة لغدٍ أفضل، وأنا أطمح وأود أن أقفز على الزمن لكي أسبقه أو أسايره على الأقل، كنت أرسم أحلامي الوردية وأطعمها بعبق من روحي، كنت أأسى لما تعانيه أقراني وأتألم لما تمر به صديقاتي فلانة وفلانة.

في يوم عيد رأس السنة اجتمعنا عند بيت جدي، لنقضي يومًا كاملاً هناك، هذا اليوم هو يوم من أجمل الأيام ، التي تستبشر القرية بها، وتعده يوماً من أحلى أيام السنة، الكل في غاية من الفرح والسرور، وهذا يهنأ ذاك، يجلس جدهم في مقدمة المضيف ليبدأ الأحفاد بالسلام عليه وتقبيل يده، فلما وصل الدور إليّ انتظرني لأكمل تقبيل يده حتى أمسك بيدي قائلاً: لقد نضجتِ وها أنتِ اليوم عروسة وأجمل عروس.

- ابتسم الجميع وبادر أبي، إنها آخر العنقود يا أبي ولا أريدها تكبر، فهي نور البيت.

- بعد ابتسامة، حقًا، لهي نور وزهرة بيت جدها أيضًا، لكنها قد زادت من أعمارنا وأصبحنا بعمر الكهول.

- يرد سامر: أنت سيدُ الشبانُ يا جدي.

- يضحك الجد ملأ شدقيه، ويقول: أيُّ شبابٍ يا سامر هذا الذي تقصد، فالزمن لكم وليس لنا فنحن أصبحنا ماضي وتراث.

– أنت الخير والبركة يا أبي، هكذا رد أبي، وبقيتُ أنا محط نظر وحُب وعطف أهلي، حتى بدأت أخواتي تغار من هذا الإفراط بالمديح والإفراط بالعطف والحنو عليّ، وقضينا يومًا كاملاً في بيت جدنا، ونحن فرحون مسرورون بهذه المجموعة من الأقارب إذ أنهم في كل عيد يجتمعون عند جدنا ويتبادلون الحكايات والأشواق.

تعود كل عائلة إلى بيتها وهي بغاية الفرح والبهجة، ويتفرق كل منهم إلى غرفته، يغط الجميع في النوم، أبقى جالسة وكأني لم أشعر بإقبال للنوم ففضلت أن أحاكي القمر بكلماتي العذبة، افترشت فراشي في حديقة الدار وأخذت أرمق السماء، لأشاهد سحرها وجمالها الذي ألهمني كثيراً من الجمال، أبقى متأملة حتى يغلبني النعاس وأنام دون أن أنتبه إلى نفسي، وأنام كأني طيرٌ محلقٌ أو ملاكٌ هائم، فأقبلت الأحلام عليّ تباعًا، فما إن أنتهي من حُلم حتى يُدركه آخر وهكذا، فحلُمت إن أقبلت علينا مجموعة ترتدي الملابس السوداء، ذات لحى طويلة، وترتدي ثيابًا تعود إلى أيام الجاهلية أو يشبهون الزي التقليدي للأفغان، ووجوههم شاحبة كالحة قد تجردت عن أية نظرة إنسانية، وهم يُلوحون بأيديهم التي تحمل السلاح المتوسط وتقوم بإطلاق الرصاص بشكلٍ عشوائي، مما زاد رعبي وذعرتُ لهذا الحُلم الذي أرهبني وجعلني أفيق صارخة مستغيثة، فأقبلت

أمي عليّ مسرعة ولحقها أبوي وإخوتي، أخذوا يهدئون من روعي، ويخففون من قساوة كابوس الحلم، أرادوا مني أن أفصح عما رأيته في منامي لكني من فرط خوفي لم أنطق بأيّ حرف، احتضنتني أُمي وأشعرتني بالحنان والدفء، أخذتني لغرفتها وتوسدت معها الفراش لكنّي ما زالت على حالة من الرعب والذهول، تفرق إخوتي عني وبقيت أمي ملازمة لي، أخذت أُمي تناغيني بأجمل الكلمات وأعذبها لكي تعيدني إلى النوم مرةً أخرى، لكني لم أستسلم للنوم قط، لأني لا أريد أن يعود لي ذلك الحُلم الذي أصابني برعب وأيُّ رعب، بقي ذلك الحُلم ماثلاً في مخيلتي، ولكني تنبأت بحدوثه، فكيف لبنت لم تبلغ الرابعة عشرة من عمرها أن تعيش هكذا كابوس! مرت أيام وأقبلت أيام وإذ بدأت بواكير الظلام تلوح في الأفق، الأشد مضاضة واقسى ألم مرّ على هذه العائلة هو نبأ أخي الأكبر عصام الذي كان فاكهة البيت وإنسه، وهو من أكثر إخوتي مرحًا وأقربهم إلى قلوب أبي وأمي، بدأت بواكير الألم وذلك عندما بدأت مجاميع مسلحة مُتخذة من الشعارات الجهادية دستوراً لها، وفي الحقيقةِ إنهم مجاميع إرهابية لا تمت لأي صلة بالإنسانية ولا أي دين حتى، هم مشروع خارجي تكون ونشأ ليضرب الشعب السوري بعضه مع بعض، وكانوا عبارة عن تنظيم مسلح تابع لأجندات دولية خارجية، لم يكن يعرف

بهم أحد لأنهم لم يتمكنوا من الظهور في الإعلام لأنهم سيقتلون بعملية خاطفة من الجيش السوري، فاشتبكت فرقة من صفوف الجيش على الحدود المحاذية للعراق مع هذه المجاميع المسلحة السائبة، في أثناء هذه المعركة سقط هذا الفتى اليافع الذي ينبض بالحياة والحيوية والطاقة، سقط قتيلاً حيثُ استقرت في جسده أكثر من ثلاثة وعشرين رصاصة، مما جعل جسده يتمزق، وينزف من ثلاثة وعشرين موضعـًا في جسده، وأُرديَّ عصام قتيلاً مضمخـًا بدمه، لتبدأ بعدها سلسلة من الهموم تعصر قلب أهله وتذوب قلوبهم عليه أسىً وحسرات، وبقي جسد الشاب ينزف حتى انجلت الغبرة ، بقتل هذه المجموعة الخارجة عن القانون، وقُتلَ من قُتِلَ منهم وجُرح منهم من جُرح وهرب منهم من هرب، رفعت جثته وهي مازالت تقطر دمـًا عبيطـًا، أوصلوه إلى مقر الجيش الحدودي، وبقي ليلته مطروحـًا على الأرض ينتظرون الفجر لكي يتجهوا إلى أهله في محافظة حلب الشهباء، مازالت الأجواء ملبدة بالغيوم، معروفٌ إنّ قلب الأم هو من ينبض لأولادها لكن هذه المرة قلب الأخت هو الذي اعتصر وأحس كأنّ خطراً ما حاق بأخي، فزعت من النوم مذعورة وأخذت أصرخ بأعلى صوتي: عصام... عصام... عصام، نهض الجميع من النوم مذعورين،

واتجهوا إليّ ليهدئوا من فزعي وقراءة بعض الترانيم التي تهدأ قلبي، أخذوا يسألونني عن كابوسي هذه المرة فأجبت:

- عصام.

- ما به؟

- بأعلى صوتي: عصام.

- ماذا رأيتِ نرجس؟

- إنه ينزف الآن.

- ماذا!

- إنه في حالة سيئة، إنه موجوع، إنه ينادينا جميعـًا، إنه مشتاق لنا جميعـًا، إنه هناك، هناك، هناك بعيداً.

- إلى أين ذهب؟

- رحل عن عالمنا، ودخل عالمـًا آخر، عالمٌ يختلف عن هذا العالم.

- وهل يرانا ونراه؟

- لا، لن نراه بعيوننا ولكن بقلوبنا فقط، أما هو فيرانا بروحه، روحهُ لا غير.

وأخذتنا الحيرة بالأمر كل مأخذ، منهم من يقول لنتصل به، ومنهم من يقول سنقلقه إن اتصلنا بهذا الوقت، ومنهم من يقول هو كابوس مراهقة لا أكثر، وبين هذا التردد وهذا اللغط، يهدأ الجميع ويصمتوا، فقرروا أن ينتظروا الصباح ويتصلوا به ليطمئنوا عليه، هدأ صوتهم ورجع بعضهم إلى

النوم، وبقي من له قلب كقلب أمي، جلست عندي أمي، ولم تتركني وبقيت تضربُ أخماسًا بأسداس لهول ما سمعت مني، قلب الأُم واجفٌ مضطرب، الهموم تساورها والقلق أجهدها، لكنها قررت أن تُسلم لما أقرهُ زوجها وهو البقاء حتى ينبلج نور الصبح، الانتظار صعبٌ وبالأخص على قلب يعتصر تشوقًا إلى شيء ما، وما بالك إذا كان على جثة فلذة كبد! بدأت تتذكر كيف كان باراً بها وبكل أهله، ملامحه، مزاحه، حركاته، سكناته، كل شيء فيه بدأ ماثلاً أمامها، عندها دموعها بدأت تنهمل كأنها رشقات المطر، لجأت إلى الرب ليكشف لها عن هذه المحنة، ولكن كلما بدأ الفجر يقبل كلما زادت نبضات قلبها، وتسارعت دقاته، فهي كادت أن تُصعق لهول ما تعانيه، عليها أن تتحمل وتنتظر لما يحمله الغد لها.

نرجس ترى أمها وهي بحالة يرثى لها، أرادت أن تهدأ من قلق أُمها لكنها لم تتمالك نفسها وأخذت تنشج بالبكاء، الإحساس لم يترك مجالاً لأية بارقة أمل، ومن يُكذبُ قلب الأم مضافًا إليه قلب أُخت محبة لأخيها، ها قد أقبل الصباح، وانكشف نوره للأبصار، قررت الأم أن تتصل بولدها، فرفعت الهاتف وضغطت على زر الاتصال لكنّ قلبها أصابته رعدة مخيفة، لكنها بادرت فاتصلت:

- يرنُّ، ولا أحد يرفع الهاتف.

- ربما لم يسمعه، ربما في حاجةٍ ما، وأخذت تعلل نفسها وقالت إنها ستتصل لاحقًا، حتى يطمئنَّ قلبها، بقيت تغدو وتروح، وتستعرض الدار بقلق، بادرت ورفعت الهاتف لتسمع صوت وليدها، ولكنه لم يرد أيضًا، ازدادت خوفها وتوترها، نرجس خشيت على أُمها من هذا التوتر الممض، فأرادت أن تكسر التوتر وتخفف من حدة القلق:

- ماما تعالِ لنعد الإفطار لإخوتي.

- أيُّ إفطار وقلبي يكاد يذوب حسرة وقلقًا على أخيكِ.

- لا شيء عليه، سوى السعادة، ربما لديه حاجةٌ ما، ربما في مهمةٍ ما.

- نرجس، بكل قلق.

- نعم ماما.

- قلبي غير مطمئنّ، وأرى إنّ كارثة ستنزل علينا وأظنها تخص أخاكِ.

- جف ريقها لهذا الكلام الذي شعرت بخطورته وصدقه، كيف ماما؟

- قلبي لن يكذبني في الحدس، وبالأخص على أبنائي.

- أتمنى أن يكون وراء هذا القلق خيرٌ تطمئنُ له نفوسنا.

- كمن تحاول أن تمضي مع الخير في الكلام على أقل اعتبار، أتمنى. .

وبعد ساعة وأخرى وهم يتصلون عليه ولا أحد يرد، ازداد خوفهم كثيراً، قرروا أن يتصلوا بمقر القيادة لأن عصام ترك أرقام بعض الضباط عند أهله لكي يطمئنوا عليه، وبالفعل اتصلوا على رفيقه وسرعان ما أتى الجواب إنه سيأتي إليهم اليوم أو غداً، لم يتحملوا هذه الكلمة وأرادوا أن يسمعوا صوته لكن الخط أغلق، وبقي الجميع ينتظر، لا يوجد لديهم شيء سوى الانتظار ليوم غد، لم يذق أحدهم النوم قط وبقي الجميع منتظراً، انتهى الغد وهم قلقون على ولدهم، قالت الأم: اتصلوا به وقولوا له أين هو، ولكن هذه المرة كان الهاتف مغلقًا، لحظات ولحظات حتى طُرقت الباب عليهم، خرج سامر، فرأى إنها سيارة عسكرية، نزل الضابط من مقدمة السيارة وترجل بحزن وانكسار، شعر أبي بالوهن والقلق، بدأ الضابط بالسلام أولاً، فردَ عليه السلام، ولكن الرجل لا يعرف كيف يبدأ الكلام، بدأ يقول بأنّ عصام كان من أشجع المقاتلين، ومن أغلب المتحمسون في الدفاع عن الوطن، وأخذ يسرد له بطولاته في الميدان وكيف إنه استبسل في صد الإرهابيين عن أرض الوطن، كل هذا له أهمية عند أبي، لأنه يعرف هذه المواصفات في ابنه وإنه سيكون مصدر فخر وعز لكل عائلته، أراد أن يعرف ما وراء هذا الإطراء والمديح، صمتَ الضابط، فألحَ عليه أبي وبالغ في الإلحاح والضابط يبكي ويجهش بالبكاء، وأخذ الجنود الذين معه

يجهشون بالبكاء، صرخ أبي، هل أستُشهِد ابني؟ هل أستُشهِدَ ابني؟ هل أستُشهِدَ ابني؟ نطق الجندي من هناك: هنيئا له الشهادة يا عم، هنيئًا له الشهادة يا عم، هنيئًا له الشهادة يا عم، وقع هذا الخبر موقع الصدمة، وسقط على الأرض بعد أن خارت قواه، ولم يعد يتمكن من النهوض، أقبلتُ إليه فوجدته طريحًا على الأرض، ناديت بأعلى صوتي، سمعني إخوتي فهرعوا مسرعين إليّ، اجتمعنا أمام الجنود، فأخبرنا أحدهم بشهادة أخي، هنا تعالت الأصوات بالبكاء والنحيب، وسُمعَ من داخل البيت صوت امرأة نادت: ابني، ابني، ابني، وأخذت تولول على ولدها الشهيد، وهذه جثته أمام الدار ملفوفة بالعلم السوري، صاحت آه يا أمي، آه يا أمي، آه يا أمي.

أخذت نرجس تصرخ صراخ الثكلى، وتأن أنين اليتيمة، وقد كسر جناحها المرفرف، فألقت نظرها على الجثمان وهو داخل صندوق خشبي، نادت بصوت مبحوح، أخي عصام ونادت معها أخواتها وزوجته التي كانت قريبة الولادة مما جعلها تسقط جنينها من فرط صدمتها وفزعها، أين أنت أخي، أين أنت يا سندنا، أين أنت يا حامي شرفنا، أين أنت أيها الرجل الغيور، أين أنت يامن شاركتنا ساعات حزننا وفرحنا، أين أنت يا من كنت معنا في كل أوقاتك، تعال يا أخي، أُخواتك تصرخ وتستغيث بك يا حماها، واجتمع

رجالات القرية ونساؤها وأطفالها وشيوخها والكل بادي عليه الحزن والألم لفقد هذا البرعم الجميل، الأم أصابها الذعر وأخذت تلطم وجهها بكفها وألقت بالتراب على رأسها وهي تندب ابنها حتى أبكت كل الحضور، وأقاموا له عزاءاً يليق به لكن عزاءٌ من اللطم والبكاء والنحيب، وأمها أخذت تعدد وتولول حتى قطعت القلوب أسىً، وأما أطفاله الثلاثة فقد كانوا يبكون لفقدهم هذا الأب الغيور مما جعل منظرهم يبكي حتى الصخر، اجتمعوا حول الجثمان وهم بين باكٍ ولاطم وحزين ومذهول، يبادر شيخ القرية معلنًا إلى الجمع، هيا لنسارع في دفن الشهيد، لأن كرامة الميت دفنه بأسرع وقتٍ، صاحت أمه: لم أشبع من توديعه بعد، فكيف تأخذوه مني، إنه من هنا خرج وهي تشير إلى بطنها، أمه سقطت مغشيًا عليها، أخته خارت قواها، إخوته أخذتهم الصدمة، أبوه لم يحرك ساكنًا من فرط الصدمة، زوجته أسقطت طفلها وأولاده ممددين على الأرض ينوحون، رُفع الجثمان على الأيدي ليُشَيَّع إلى مثواه الأخير، والهتافات تعلو بالتهليل والتكبير وأنشودة الوطن، ولكن النساء لا حركة ولا سكنة ولا أيّ ردة فعل، الصدمة قاسية على الجميع، وعند ذلك مشى المُشيعون بعيداً شيئًا فشيئًا عن الدار، وكلما بعُد الناس عن الدار كلما خفت الصوت حتى تلاشى أخيراً من فرط الإعياء والذهول.

الموت البطيء

أيامٌ كالحةٌ سوداء، تقبل رويداً رويداً، لتعلن عن بداية جحيم سيطل وشيكـًا، الساعات تبدأ مكشرة! غاضبة، حُبلى بغدٍ سيكون ربما أسوأ من الحاضر! لا يُعلم أهي إرهاصات، بدأت تُلّوح في الأفق أم هي خطة محكمة، وطبخة دسمة طُبخت في مطابخ الاستكبار العالمي، لتفتت الدول ذات الخير والثروات؟ مازالت النار هامدة والرماد ساكنـًا ولعله بدأ يبرد معلنـًا عن عودة اشتعاله، وليس عن إطفاءه! كما يقول الشاعر: الحرب أولها كلام! المؤشرات تدل بما لا يقبل الشك إن القادم هو الجحيم وهو العذاب لا غير، فكيف سيعرف الجميع أن يقضوا أيامهم على خير! هنا تدخل المطامع والتحالفات من جديد لتبدأ بإعادة ترتيب الأوراق، فربما عدو الأمس هو صديق اليوم ولربما صديق الأمس هو عدوٌ لدود اليوم! السياسة لا تعرف الاستقرار إلاّ في المصلحة، المصلحة المادية أولاً على حساب كل شيء، الأرض، الإنسان، لا يهم كل هذا أمام المال، فالمال هو الحاسم لكل الأمور وهو الذي سيكون اللاعب الأبرز في كل القضايا، يا ترى لمَ أصبحت ثرواتنا مصدرُ عذاب لنا؟ هكذا

كنتُ أتساءل مع نفسي وأدركت أن أخي كان حاضراً فأبتدرني قائلاً:

- لسوء فهمنا في استثمار قوتنا وخيراتنا.

- ولماذا نحن لا نعرف هذه؟

- لأننا قومٌ مازلنا نعيش الروح والعقلية الجاهلية التي لا يهمها، ما سيحدث في الغد، وما دمنا مكبلين، بقيد القبلية والتدين والقومية، فلن نتقدم إلى الأمام قيد أنمُلة.

- كان الله في عوننا للأيام المقبلة بعلاتها.

- كان الله بالناس رحيما، ولكن ما بال الناس لا ترحم أنفسها!

ويسود الصمت المطبق بينهما وكأن الفم أُلقم حجرٌ، ليمنع من الكلام.

أطل علينا عام ٢٠١٢ والذي يعتبر البوابة للأزمة العارمة والقاسية التي عصفت بالشعب السوري، عندما قامت تظاهرات عفوية خرج بها جمهور واسع من الشعب السوري، بدأت تظهر هذه التظاهرات التي يُنظمها بعض منظمات المجتمع المدني وبعض جمعيات حقوق الإنسان، ومال الناس البسطاء إليها لأنهم وجدوا بها مصلحة عامة تنفعهم، المطالب هي مطالب إنسانية، اختصرت بإطلاق سراح السجناء السياسيين، وعدم تقييد الحريات وعدم تكتيم الأفواه وبسط فرص العمل، وهكذا بدأت المطالب

تنادي وتنادي حتى بدأت تزعج قوى الأمن وتهددها حسب زعم الحكومة، عند ذلك بدأت المؤشرات واضحة المعالم، هناك دول لا تريد الاستقرار في العالم العربي، وبالأخص الدول التي هي المهيمن على الاقتصاد العالمي والتي فرضت سيطرتها على مركز القوة في العالم، تدخلت القوى الاستخباراتية، وذلك بدس السُم في العسل لضرب النسيج السوري بعضه مع بعض، الغرض واضح ومعلوم، وهو تمزيق البلد الكبير ليتحول إلى قطع صغيرة لكي يسهل السيطرة عليه، ونهب خيراته وثرواته، الأعلام الخارجي المضاد لكل السورين أخذ يطبل ويزرع بذور الفتنة والشقاق بين صفوف الشعب، وكأن هناك مؤشراً يُنبأ عن موعد الربيع العربي، والذي ستعاني منه الشعوب العربية أيما معاناة، بدأت الخطابات التحريضية التي يَشُنها رجال الدين الطائفيين، وهنا تحول رجل الدين إلى رجل متطرف وذلك بإلقائه الخطابات التحريضية التي تزيد من حماسة الجمهور وتزيد بذات القوت مقته للحكومة، التي هي مركز القوة في البلاد، ليبدأ التلاحم والاقتتال بين أبناء الوطن الواحد والمدينة الواحدة ولربما أبناء القرية الواحدة! وكأنها قطعُ الليل المظلم، بدأت الاحتجاجات السلمية تنزل إلى الشوارع وتغلق الأسواق وتغلق الطرق، كانت مطالب التظاهرات التي خرجت في عموم سوريا تطالب بالخدمات

والإصلاح والحرية، ولكن هذه الجموع ربما خُذِلت من العالم، وربما قد دخل مندسون، حرفوا هذه التظاهرات عن سلميتها.

بدأت نشاطات الشباب الذين يغلي دمهم ويفور على بلدهم، مال أخي علي وسامر وكامل إلى التظاهرات وتعاطفوا مع صيحات المظلومين المطالبين بالإصلاح السياسي، وقعت هذه التظاهرات موقع الصدمة على جميع العالم، نعم التظاهرات عفوية وسلمية كانت لولا تدخل الدول العادية مما جعل الحكومة تتعنت وتقابل التظاهرات بقسوة شديدة، إن قسوة القمع الذي حاق بالتظاهرات جعلها تنزع ثوب السلمية الذي لبسته طوال مسيرتها الاحتجاجية.

أخي سامر كان عضواً نشطًا في الجامعة، حتى استطاع أن يعبر عن آراءه التحررية، لم يخشَ مخاطر نشره هذه الأفكار، وقد أُعجب بحديث يروى للإمام علي: لا تستوحشوا طريق الحق لقلة سالكيه، ذات يوم تقبل مجموعة من قوات الأمن واعتقلته، وأودع السجن من جراء كلماته التنويرية، لكنه ازداد إيمانًا بقضيته، وبدأ وهو داخل السجن يخطط لأفكار أقوى وأجرأ، مضى في السجن شهراً كاملاً، وأفرج عنه بكفالة، وشروط، استقبله الوالد بأعنف استقبال موبخًا إياه على ما فعل، وأخذ يعيد عليه ما حصل له من أخيه الأكبر، وانه لم يعد يتحمل العذاب اكثر من

هذا، أجلسه بقربه، اخذ يتودد ابنه، وأخبره إن رحيل وخسارة عصام كسرته، وسلبته طعم الحياة وجمالها، وقال له بني والله إن طعم الحياة مرٌّ عليّ لفقدي أخاك، أقبل قدميك أترك السياسة لأهلها فما بالنا وبالها، المعارضة تريد ان تسقط الحكومة لتتبوأ المنصب هي، والحكومة متشبثة بمنصبها ولن تقبل عن أية نقد يصدر بحقها، لأن الحكومات الغير ديموقراطية عندما ترى شخص يهدد وجودها، تلجأ إلى القوة لتصفيته لأنهم لا يجيدون غيرها من سبيل، فعرشهم مركون عليها وقائم بها وحدها، ترك أبي يكمل حديثه حتى بادره قائلاً :

– إذا تركنا النضال من أجل الحرية فمن يقوم به إذن، أبي أني أريد أن أنهض لمستقبل أبنائي وليس لي.

– حرية أبناءَك ثمنها حياتك يا بني.

– وإن، طريق الحرية مليء بالشوك والألغام ولكن لا مندوحة من السير عليه حتى نحقق ما نأمله.

– بني الانقسام السياسي وراءه مصالح لكل منهم، لا تتصور إن المعارضة اليوم عندما تحكم ستحكم بما أنزله الله أو ما تريده الإنسانية.

– نعم، أتفق على هذا، لكن يا أبي لنقيدها بقوانين وتشريعات قوية، لا تستطيع أن تخرقها أو تتعداها، لأنها إن فعلت ذلك قمنا بعزلها وإسقاطها حتى.

– وماذا ستجني من تضحياتك هذه سوى خسرانك روحك التي بين جنبيك!
– لتذهب روحي فداءً للحرية ولطريق الإنسانية، وليكن إبنك وقوداً لبلوغ نور الإنسانية المعذبة
كانت المسيرات الشعبية، هادئة وتسير بخطى ثابتة ومتزنة، هنا وقفت الحكومة أمام مشكلة عظمى، وهي كيف لها أن تفرق وتفتت من عفوية وسلمية هذه الجموع المحتشدة المطالبة، بأبسط حقوقها التي منعت عنها، وهي في داخل بلدها، الحكومة أصبح موقفها حرجًا، الإعلام العالمي المعادي للحكومة كان بالمرصاد لكل حركة وسكنة أو أية ردة فعل تصدر من الحكومة، ليكون ذلك دليلاً على الإسراع بقيام تلك الحرب الدموية التي بدأت توضع لها الخطط وتطبخ على نار هادئة، أخذتُ أستمع إلى محطات الإذاعة وهي تبث سمومها على الشعب السوري، انقسم العالم إلى قسمين قسمٌ وقف مع الحكومة أمام كل المتظاهرين، وقسمٌ وقف متعاطفًا مع المتظاهرين، وبالتالي لم يكن لدى المتظاهرين والذين لم يطلق عليهم معارضة بعد أية قوة يستندون عليها، شرعيتهم الوحيدة هي صيحاتهم ومعاناتهم ولكن هذه الصيحات لن تغني شيء أمام السلاح والإنسانية، الضمائر ميتة أيعقل أن يُحيّها صوتُ طفلٍ جائع أو صوت امرأة تعاني الثكل والترمل! أمام شبابٍ فقدً

مستقبله ولا أمل يرجى له، بدأ التصعيد الإعلامي، وبدأت المهاترات تزيد من حمم البركان، ودول الشر كشرت عن أنيابها، سارعت دولتان تصديتا المشهد واحدة مالت الى الشعب وأخرى مع الحكومة، وكلٌ يغني لليلاه، على حساب الشعب الغاضب، احدهما اتخذت من العروبة شعاراً قومياَ لها، وتلك اتخذت المذهب الديني شعاراً لها، وهنا دخل الناس بحرب نفسية عظيمة، الدين لا يلبس لباس إلاّ وتقمصه الناس ومالوا نحوه، من سوء حظ الدين إن رجالات الفتنة قد دخلت إليه، لتبث السموم بين أبناء الوطن الواحد! وبدأت هذه تشن على تلك، وهذا في داخل سوريا وبين أبناء سوريا! فيا للخطب الفظيع أيعلم السوريون متظاهرون أم حكومة، إنهم سيكونون حطبًا لنيران هذه الدول، أيعلم السوريون، إن الذي يجمعهم هو كل شيء، والذي يفرقهم ليس له وجود، أقبلت هذه القوى على تشويه صورة الاحتجاجات، وتقريب صورتها إلى الإرهاب، وهذه تهمة كبرى تتهمها الحكومات بوجه أي معارض أو منتقد لسياساتها، وهذه سنة سياسية طبيعية لا مراء في إطلاقها على الشعب الثائر، دخلت قوى وأجندات خارجية إلى التظاهرات بعقول تميل إلى العنف وتحبذه، وهنا دخلت التظاهرات حالة لم يكن يراد لها، كان علي وسامر وكامل ممن أيد هذه التظاهرات ولكنهم فورما وجدوا أنفسهم أمام

حالة من الفوضى والشغب والعنف قرروا أن يعتزلوا الصفوف ريثما يزاح الغبار، بالفعل بدأت أعمال تخريبية تظهر من بعض الأفراد المحتجين وبالحقيقة هم الإرهاب الحقيقي، الذي دخل سوريا ليشعل نار الحرب بين أهلها، وتم لهم ذلك بالفعل، مالوا إلى الاعتداء على قوى الأمن والممتلكات العامة والمرافق العامة، التي هي ملكهم قبل أن تكون ملكًا للحكومة، وهذه ظاهرة تفسر، إن هؤلاء لا يريدون السلمية ولا السلم، بل هم مأمورون بإشعال فتيل الحرب الأهلية، لتتدخل القوى المعادية بزيها العسكري جهاراً، وكما يقال إن القوانين والأنظمة تخرس أمام الأسلحة، نرجس تخشى على إخوتها من هذا المد القادم، أصرت عليهم بأن يتركوا التظاهرات ويكتفوا بحياتهم عن العنف، أمهم أقسمت عليهم أن يتركوا التظاهرات ويلزموا البيت فهي لم تعد قادرة على الثكل بأي أحد، وتريد أن يبقى الجميع تحت عينها، طول مدة شهادة ابنها بقيت تندبه كل صباح ومساء حتى أشفقت على أبناءها وكفت عن البكاء رحمةً بهم، زوجها كان كاسف البال في أغلب أوقاته وهو أصبح بعد شهادة ولده البكر شيخًا لا يقوى على الحركة المستمرة، صدمتهم بواحد من فلذة كبدهم كانت قاسية جداً، وطلب من أبنائه عدم الخروج لئلاّ يصابون بمكروهٍ ما، إنها الفتنةُ إذن ولربما صح الحديث المروي عن النبي محمد

(ص) بما معناه، إن الفتنة في الشام ستبدأ كأنها لعبُ الصبيان، كلما هدأت من جانب ثارت من جانبٍ آخر! كانت مظاهرات درعا وتطور الأحداث فيها علامة بارزة في الأزمة السورية التي حدثت فيما بعد عام ٢٠١٢، واستمرت حتى دخلت عام ٢٠١٩، الأيدي الخبيثة عبثت بتوجيه المظاهرات نحو التصعيد، وكان أغلب المنصفين ينادون بسلميتها، ولما هجم المتظاهرون على إحدى مرافق الحكومة، والذي لم يلقَ رداً من رجال الأمن، ليس كل المتظاهرين أرادوا أن تكون التظاهرات بهذا الشكل من الفوضى، كان علي دومًا يردد بأعلى صوته: يا شباب سلمية، يا شباب سلمية، يا شباب سلمية، طبيعي أن يكون الشغب هو الفعل الذي يعقب التظاهرات وبالأخص عندما يكون تعنتًا من الطرف المقابل، وبعدها بدأ بعض رجال الدين، تعبأ الجمهور ضد النظام الحاكم، وبعد يوم من التظاهرات داهمت قوى الأمن إحدى أماكن التظاهرًات، فوجدت به صناديق من الأسلحة المتوسطة والكثير من الأموال، وهذا يعني إن هناك عملية مهيأة لإسقاط الحكومة، البسطاء انطوت عليهم الشعارات الثورية، حتى إن الجميع كان يُدرك ما هي إلاّ ساعات وسيسقط النظام، وتبدأ مرحلة جديدة من تاريخ سوريا الحديث، ربما استطاع المتظاهرون إسقاط الحكومة! لو لا تدخل الدول الحليفة لها بصورة

ميدانية عسكرية! تفاقمت الأمور وأطراف الخصام لم تعرف بعد، الحراك الجماهيري كان عفوياً، لكنه لم يستمر بعفويته طويلاً، بل بدأت الدول التي تريد التصعيد، تدخل على الخط لتزيد من إشعال فتيل الحرب، هناك حليفٌ قوي لدى الحكومة، بدأت بعض دول الجوار تتبنى مشروع التظاهرات وتطبل وتزيد على الطنبور نغمة، حسب مزاجها ومصالحها، على حساب مصالح الشعب، طبيعة الأنظمة الدكتاتورية إنها لن تقبل بأي شكل يمس رأس الهرم، وكأن الشعار انتقدوا جميع الحكومة إلاّ الحزب الحاكم ورأسه فهذان خطان لا يُسمح بالاقتراب منهما! الغرور الذي ملك الحكومة وقوى الأمن كان خاطئاً لأن قوى الشر أرادت أن تستفز أحد الطرفين لكي يكون الاختراق سهلاً، قامت عناصر من قوى الأمن بالاعتداء وإطلاق الرصاص الحي، مما خلق حالة من التوتر أعقبتها انتفاضة مسلحة، أشعلت فتيل الحرب في سوريا، وحدثت هناك تصادمات بين الأهالي وقوى الأمن، عندها بدأت حدة الخصام تتزايد وتأخذ طوراً آخر لكنه غير السلمي، بل التجأت الأمور نحو السلاح وهذا ما يريده أعداء سوريا، من أصدقاءها وأعداءها، بلدة من أقصى البلاد وبعيدة كل البعد ولا تربطها في سوريا أية مصالح ولا أية دبلوماسية كما تربطها بدول الجوار، وأخذت هذه الدولة تعمل على الوتر الطائفي فأشعلت

العالم كله بطائفيتها المقيتة، وأخذت تدس السُم بالعسل لكي تضعف من قوة ترابط الشعوب، المضحك المبكي في الأمر إن الحزب الحاكم كان ذو نزعة قومية فكيف اجتمعت لديه كل تلك التناقضات؟ إنها السياسية اللعينة لا غير، وهل غيرها من أحرق البلدان وجوع الشعوب، حلب تحذو درعا والرقة تحذو حلب ودير الزور تحذو الرقة وهكذا دخلت البلاد في حالة الطوارئ، والجميع يدرك إن الأوضاع آخذة بالتطور نحو الحرب الأهلية.

يومٌ كان أقسى الأيام علينا، وهو ظهور فصيل مسلح جهادي يدعى تنظيم الدولة الإسلامية مستغلاً ضعف الحكومة حتى استطاع أن يظهر في الصحراء ما بين العراق وسوريا.

استطاع هذا التنظيم فيما بعد السيطرة على مساحة شاسعة من مدينة الرقة ودير الزور وبدأت تظهر التنظيمات المسلحة ذات الصبغة الجهادية التي لا يعرف لها ولاء إلاّ إنها أداة لذبح الشعب السوري وتمزيقه أقبلت بها الدول الأكثر شيطنه وأقل إنسانية والتي يعرفها كل أهل الأرض، وبالفعل بدأ الناس ينظرون إلى هذه الفصائل كأنها الخلاص من هذه الحكومة التي لم تسمع لمطالبهم، فأصبحوا كمن يستجير من الرمضاء بالنار أو العكس، مال بعض الشباب إلى هذه المجاميع لأنهم وجدوا بها الروح الجهادية نحو تحريرهم وكانت رايتهم الله أكبر وشعارها الإسلام، فأغراهم الشعار

أكثر من المضمون! ومنهم مال إلى هذه الفصائل قهراً بحد السلاح المشهور فوق رأسه.

مدينة حلب تُعد من أهم المدن السورية الحيوية، فهي تضم أفضل الثروات الصناعية والطبيعية، لذا فأهميتها بالغة عند كل الأطراف المتخاصمة، هذه التظاهرات لم يُكتب لها الاستمرار على الروح السلمية في مجراها، بل دخلت أيادي تحاول أن تضرب الجهات بعضها ببعض، وكأنّ حلب مقبلة على حرب هي أشرس أنواع الحروب، التي يخوضها أبناء الوطن بعضهم بعضـًا، وبعض الأحيان المدينة الواحدة يقتل أحدهم الأخر، وربما يقف الأخ وأخيه على جبهتين متضادتين، قرعت طبول الحرب بين قوات الحكومة وجماهير الشعب الغاضبة بدت الأمور تتعقد على السكان، وكلما مضى يوم وإذ بالأزمة تزداد وأطراف الصراع يتشددون أكثر في استمرارها، الإعصار يتأجج وحمم البراكين بدأت تستعر أكثر فأكثر، لموج قادم، هذا الموج سيعصف بغصن الياسمين ويحاول أن يكسر هذا الغصن، أوشكت الحرب دون إعلان عنها، ولوحت أطراف النزاع إن الحل هو السلاح وليس غيره، إذا كان ذنبُ الأطراف إنها تتنازع من أجل شيءٌ ما فما ذنب العُزل والبسطاء، مازال جرح الياسمين لم يكلم بعد فقد توالت عليه مِحن وأهوال وعواصف لإسقاطه وسقوطه.

يومٌ ما أقساهُ من يوم يفيق الناس على أصوات الرصاص والقنابل وجعجعة المركبات، هنا بدأت الأزمة تتفاقم، وبدت كأنّ هناك مصائبٌ ستحلُ على الجميع، الحرب لا غيرها، السلاح لا غيره، المعركة لا غيرها، القمع لا غيره، الثورة لا غيرها، هكذا كان يردد أطراف الأزمة فيما بينهم من شعارات، الحكومة شعارها الحرب والشعب شعاره الثورة المسلحة، فأين لغة السلم، وأين لغة الحوار العقلاني، وأين العمل الديموقراطي الحر؟ إذن عالمنا لم يستوعب الديمقراطية بعد، ولن تفهمها الأنظمة الحاكمة، هكذا كانت تردد بين نفسها، وبدأت المدن السورية تشهد حالات من الفوضى العارمة في كل مفاصل الحياة، تأزم الوضع كثيراً، شعارٌ من الحكومة أثار حفيظة المتظاهرين، عندما وصفت الحكومة المتظاهرين بالإرهاب! وكأنّ المطالبُ بحقه يُعد إرهابيًا يجب أن يقتل! التعنت والغرور الذي عاشته الحكومة ، هو من أسباب تفاقم الأزمة، لعلّ المقولة الشائعة التي لم تحقق بعد وهي: أعطني معارضة نزيهة أُعطيك حكومة نزيهة، الحكومة هي الأب المسؤول عن أبنائه إن حادوا عن طريق الرشاد يجب أن يُعلموا ويُنصحوا حتى يعودوا إلى الرشاد، خُلِطت الأوراق، وتدخلت قوى إقليمية كان متربصة على الدوام، يأتي يومٌ هو الأسود في كل تاريخهم، وذلك عندما تبدأ المعارك فيما بين الشعب

والحكومة، وكالعادة كانت الاتهامات تتوزع فيما بينهما ويتبادلان الشتائم معـًا، كان الشعب الغاضب يريد أن يعيش الحرية الثقافية والسياسية، لكنه لم يفهم كيف يذوب النظام بمفاهيمه، ولعلّ النظام الحاكم لم يفهم هذه اللغة، لأنها خارج الأيديولوجيات التي ينتمي لها، إذن يقبل عام ٢٠١٢، ويا له من عام قاسٍ على الشعب السوري، فبه بدأت الأحداث تتصاعد وتشتد قساوة.

نرجس الفتاة المراهقة ذات الخمسة عشر ربيعـًا ، تعيش هذه الطفولة بأجواء حرب مفعمة بالدمار، كيف للوردة أن تنمو بظل صوت السلاح، لأن الورد رقيق وأبى ألا يُمسكه إلاّ أهل الود والحُب والسلام، ألمٌ وأملٌ هما يرتسمان في مخيلتها ولكن لمن الغلبةِ يا ترى، أيمكن أن يعيش الورد بصحراء تلُفها الرياح وتصهرها الشمس!

كنت صابرة لأني مازالت في كنف أهلي وفي ظل عطفهم ورعايتهم، ولن يكسر الغصن مادام هنالك من يعتني به، يفيق الناس على أصوات تقشعِر عند سماعها الأبدان، وطبول لم ولن تحبها الإنسانية في كل مراحلها، طبول الحرب وأصوات الرصاص كانت ممقوتة من الإنسانية وستبقى كذلك، فما ذنب الشعب أن يقع فريسة لحربٍ لا ناقة له فيها ولا جمل، الحرب قد أقبلت والنار مازالت تغلي وتغلي في طريقها إلى الانفجار، وقد تنفجر بأي لحظةٍ مخلفة

الدمار والفوضى وراءها، أقبلت كتائب الشر، وعصائب الظلام مكشرة عن أنيابها ، معلنة عن خططها لتدمير سوريا أرضـًا وشعبـًا، تصريحٌ من هنا وتصريحٌ من هناك، وتصعيدٌ من هنا يتبعه تصعيدٌ من هناك، يبدأ الخصام المسلح، وتبدأ مسلسل الدم التي ربما لن تقف ولعلها لن تقف لأن الدم لا يزيله إلاّ الدم بعرف وقانون هؤلاء البشر المتخاصمين، سؤال تطلقه نرجس وما ذنبنا نحن؟ أجل ما ذنبنا نحن؟ أذنبنا إنّا خُلقنا بهذا المجتمع؟ أم ذنبنا إنّا خُلقنا أصلاً؟ تساؤلاتها في محلها، ولكنها بدأت تستشعر الظلم فلجأت إلى الصمت، لأن الصمت في بعض الأحيان يكون واجبـًا، فإما تصمت أنت أو تُصمت رغمـًا عنك، هكذا علمتنا حكوماتنا، أن تصمت لأي فعلٍ ولأي قولٍ وما عليك سوى السمع والطاعة، حتى الكلام يصبح إرهابـًا إن كان على حق! فيا ترى كيف يكون كلام الحق إرهابـًا! وكيف يعد التعبير عن الظلم حرامـًا!

ذات صباح أحد أيام، يطرقُ الباب مجموعة من رجال الأمن مطالبين الشُبان في هذا البيت، ومن يتمكن على حمل السلاح لينهض إلى معسكرات التدريب، انخرط اثنان من إخوتي، فتحي وإسماعيل في تشكيلات الجيش التطوعي.

التظاهرات قد استهوت على روح أخي علي وقد أُعجب بشعارات التظاهرات فآمن بها، وانطلق هاتفـًا بالحرية

والعدالة، ولكن وسائل القمع كانت لهم بالمرصاد، ولما قامت قوات الأمن بقمع التظاهرات واعتقال عدد من الشُبان كان من بينهم علي ولم تنفعه وساطة إخوته الذين كانوا في إحدى تشكيلات الجيش، ولعلّ ذلك أحرج إخوته، فبقيَ ومن معه من الذين اعتقلوا في المظاهرات يلاقون التعذيب في السجن لمدة شهر كامل وقد ذاقوا ألوانـًا من التعذيب والضرب المبرح، فتكسرت رباعيته، وأصيب بكسر في الجمجمة، تم الإفراج عنه بكفالة وتوقيع عدم الخروج للتظاهرات، خرج وقد مُلأ قلبه بغضـًا للحكومة ولكل مؤسساتها، خرج والغيض يكاد يحرقه مما رأى من صنوف العذاب داخل السجن، فعزمَ أن يقف مع الحرية والإنسانية حتى وإن بذل روحه، كل هذا وأنا أعاني من الألم لهذه الحياة التعيسة، الأزمة كان مُبيّتـًا لها، فقد أعدت لها قوى الشر سنينـًا لتحيق بالسوريين العذاب والألم.

المشكلة عندما تعصف بالبلد فهي ستضر الجميع، الأغنياء والفقراء على حدٍ سواء، الحرب هي استنزاف ثروة وطاقة الشعب الطبيعية والبشرية، الظلام أوشك أن يلُف السماء، والشمس تهيأت للمغيب وربما سيطول غيابها أو احتجابها، الشمسُ غضبى لما سيجرى تحت وهجها، حتى الشمس بدأت بالتذمر من سوء فهم الأوضاع والذي سيؤدي إلى التناحر والضياع، حانت ساعة الغضب وذلك بدخول

مجاميع وهي معبأة بالأفكار المؤدلجة لجهة دينية معينة، الأفكار كانت ظلامية سوداء قاتمة، بدأت نزعة جديدة وموجة من الأفكار تطفوا على المشهد السوري، هذه الأفكار كان يبُثها رجالات الدين المنحرفون، بدأوا يعبئون الجمهور ويبثون فيه روح الخصام والعنف، والجمهور يميل إلى رجل الدين لأنه يجد في رجل الدين التدين والشرف والأخلاق والتربية والهداية وكل ما فيه صلاح الإنسان، مال الجمهور نحو رجالات الدين وكلهم أمل في أن يكون الخطاب ذو نزعة إنسانية، بدأت الأزمة تتفاقم وكان المد الموجه ضد الحكومة السورية قاسٍ وممنهج، الأعلام الخارجي أخذ يزرع ويسهم في بث روح النزاع المسلح، وبدأت الأجندات الخارجية تعمل جاهدة بكل ما تستطع أن تفعله في تفاقم الأوضاع، لغة السلاح هي التي أججت النار وأشعلت فتيل الحرب، المظاهر المسلحة هي إرهاب بنظر أي حكومة، فمادامت هناك حكومة فإن أي سلاح يرفع هو إرهاب، ولكن الغرور الذي أصاب الجمهور والحماس المفرط وبالأخص عندما لم يجدوا أُذنًا صاغيةً تلبي طلباتهم وتحقق ما تصبو إليه نفوسهم. لما ضعفت سيطرة الحكومة أمام هذا المد القادم، الموجة كانت قاسية على سوريا، السوريون ينشدون الحرية والحب لوطنهم، ومنذ القُدم كان السوريون مضرب المثل في طاعتهم لرئيس

الحكومة، بدأت قطعات الجيش وقوى الأمن تضعف سيطرتها على المدينة، وبدأت بالانسحاب التكتيكي لتعيد حساباتها في هذه المعركة التي هي اصعب معركة في اي مكان حدثت.

تأثر زوج أختي رقية بشعار تنظيم داعش، ورأى إنهم ينادون بالإسلام، أخذ يتقرب إليهم، وشيئًا فشيئًا اصبح مقربًا منهم ومن قياداتهم، تعجبت خوله من التغير الذي طرأ على زوجها، فهو رجل مدني وموظف في شركة الغاز، وحليق اللحية وغير ملتزم دينيًا، فكيف تحول بليلةٍ وضحاها إلى رجلٍ أقرب إلى الداعية، وأخذ يتمتم ببعض العبارات التكفيرية، ويستخدم مصطلحات طارئة على ثقافتهم، تسأله ما هذا الذي طرأ عليك؟

- نور الإسلام يا امرأة.

- تتعجب من هذا الرد، وأين أنت ونور الإسلام.

- وماذا فيّ أنا!

- قبل أسبوع أرجَعكَ ثلاثة من أصدقاءك بعد أن شربت الخمر حتى أغمي عليك.

- تبت وقد تاب الله عليّ.

- سبحان مغير الأحوال!

- أنا الأن مجاهدٌ في دولة الإسلام.

- أيّ دولة تتحدث عنها؟

- نحن مجاهدو تنظيم الدولة الإسلامية وقد أوكلت لي مهمة أن أكون قائداً على هذه المنطقة.
- ومن نصبك؟
- الشيخ المجاهد أبو حامد المغيري.
- وماذا تريدون من دولتكم هذه؟
- ننشر راية الإسلام والتوحيد ونبذ الكفر والكفار.
- إتقِ الله يا رجل في نفسك وفينا، فأين نحن وهؤلاء
- أتريدين أن أتقاعس عن نصرة الإسلام ولا أحارب المشركين
- إنكم والإسلام على طرفي نقيض تمامًا، فمن أنتم لتنصبوا أنفسكم حماةً للإسلام؟
- نحن رجالاته الذي شمروا عن سواعدهم وأقسموا إلاّ أن يدافعوا عنه

أدركت إن النقاش معه لن يجدي نفعًا، فقد تحول زوجها إلى شخصٍ أخر، وأدركت إنها وأبنائها الأربعة في خطر، ولكن لمن تلجأ ولمن تمضي، كظمت غيضها منه، وأخذت تخطط للهرب منه، ولكن كيف لها أن تهرب والمدينة مضروبة أشبه بطوق أمني متطرف!

بقيت أختي خولة تحت حكم تنظيم الدولة حتى عام ٢٠١٦، إذ إن العامين التي قضتهما تحت حكم داعش كانت ايام كابوس مرعب ومخيف، إنها رأت زوجها هو من يجلد

النساء الذين لم يرتدين الحجاب الذين يطلب منهن، ورأت زوجها يجلد الشبان الذي يحلقون اللحى، ومنذ سنتين وهي تخطط للهرب ولكنها تفشل في اكثر من عشرين محاولة، ما الحل يا ترى؟

كان الربيع العربي هو البداية لحرق الأوطان والشعوب العربية، لولا عمالة حكام العرب وخيانتهم وتشبثهم بالكرسي المشؤوم لما حصلت كل هذه الفوضى، الأنظمة العربية ساهمت متعمدة في كل هذه الفوضى والدمار الذي عصف بالشعوب العربية، ولكن هل تعي الشعوب الدرس؟ إن ما تعرضت له سوريا هو مخططٌ له ومدبر، وطبيعي أن الأزمة كانت مهيأة لها ومعدة الخطط، الدول التي تملك زمام القوة في العالم سعت إلى تمزيق العالم العربي إلى أجزاء بل عمدت إلى الوطن الواحد فبدأت تقسمه وتجزئه، وبالفعل بدأت الانقسامات الدينية والقومية تظهر بعد تدخل القوى الأجنبية في مصير وقرار الدولة العربية، الحكم بيد أقلية دينية ومذهبية، والأكثرية على غير مذهب فعمدت الدول إلى إثارة الضغائن والغيرة والإثارة، إن الشعور بالظلم يحفز ويثير أكثر من الظلم ذاته، وهذا ما حصل في سوريا، بدأت القوة الاستعمارية تدس السم في العسل وتنشر الضغينة بين أبناء الشعب الواحد، والشعوب لم تكن على مستوى من الوعي والإدراك لتفهم ما يُحاك ضدها، الشعوب

من جراء قسوة الأنظمة الدكتاتورية وكانت الشعوب تود الخلاص من ظلم هذه الأنظمة القاسية، ولكن الشعوب لم تفكر في ما بعد سقوط النظام، وقامت هذه القوى المهيمنة على القرار بصنع تنظيمات تظهر أثناء الأزمة لتعطي صورة منحرفة عن طبيعة هذه التظاهرات الشعبية، وبالفعل كانت هذه الجماعات المسلحة قد لبست ثوب التظاهرات واشتركت مع المعارضة الجماهيرية بعداءها الظاهر للحكومة، يا ترى من المسؤول عن دعم وتأييد هذه المنظمات؟ سؤالٌ يردده الكثير لكن لا أحد يعلم الإجابة، ولكن الواقع يشير بصورة لا تقبل الجدل إن الدول العظمى هي من صنع الإرهاب ليضرب الشعوب والأنظمة العربية، وكأن شعار هذه القوى لنضرب عصفورين بحجرٍ واحد، أي نرمي الحكومات بمعارضة قوية ونرمي المعارضة بمنظمات إرهابية من شأنها أن تمزق وتفلل القوى وتتهم المعارضة بالإرهاب، وهذا ما حصل للأسف!

وظهرت الجماعات الجهادية، وهم أصحاب الرايات السوداء، ساهم الإعلام بزيادة حجمهم وإظهارهم على الأرض والواقع، كقوة عالمية يصعب هزيمتها، هكذا أظهرها الإعلام المعادي والموالي، بدأت الجماعات بإعلانها اسم دولة وهذه الدولة توسعية باسم الإسلام، الذي لا تعرف اسمه ولا رسمه ولا حتى مبادئه، إنها أداةٌ لهدم

روح الإسلام وجوهره ليضرب الدين، الذي يدين به واحد من كل ستة في الأرض، ونجحت هذه الدول، التي صنعت هذه الأداة أيما نجاح، وظهر تنظيم داعش، بقسوة تترية همجية، وربما أضعافها، بدأت هذه العصابات بالذبح والتعذيب والحرق ولم يعرف لها مغزى، هنا انقسم العالم العربي بين مؤيدٍ لها ومتعاطف ورافض، نعم يوجد هناك أرض وجمهور لهذه التنظيمات ويوجد متعاطف أي إنه رأى ظلم الحكومة ففرح بظهور هذه التنظيمات لتحارب بدلاً عنه النظام، وحصل إن الجبهة تعددت على الحكومة، وضاقت الأرض بتعدد القوى المتصارعة، أطراف الخصام بدأوا بالقتال كلٌ يسيطر على مدينةٍ ما، إنها فتنة هوجاء يضيع بها الحق ولا يعرف، الشعب الطيب غُلب على أمره وكأنه فقد توازنه إلى أية طرفٍ يميل، ومع من يقف، الكل لديه أصدقاء استنجد بهم وأغاثوه، بقيت الناس العزل التي لا تحبذ الحرب ولم تدعوا لها، توقفت الحياة المدنية بالمدن التي يسيطر عليها المسلحون المناهضون للحكومة التي ما زالت تتمتع بجمهور كبير من الشعب، المدارس والجامعات والدوائر المدنية عُطلت بسبب سيطرة الجماعات الإرهابية على المدن السورية، سام الناس الخسف والهوان طوال فترة سيطرة داعش والنصرة وغيرها من الجماعات المجرمة، بقيت الناس تنشد السماء لتخرج

حلاً لما يعانيه الشعب السوري مما لحق به من الفتنة الهوجاء التي مزقت شملهم وفتت وحدتهم.
والحق يقال إنّ رئيس حكومتنا، قام بفعل إجراءات من شأنها أن تبيض وجهه أمام التظاهرات العامة، مثلاً إنه أطلق سراح مئات المعتقلين الذين اعتقلوا خلال التظاهرات، ورفع حالة الطوارئ التي كانت منذ عام ١٩٦٣، وبدأ بتغير وجوه متنفذة في الحكومة، ولكن مطالب المتظاهرين بدأت تتزايد وتتزايد حتى وصلت إلى النقطة الحمراء، التي لا يجوز الاقتراب منها، وهو إنهم وصلوا إلى رأس النظام، وبدأوا يطالبون بإسقاط الرئيس، عند ذلك انقطعت حبال الود والألفة وبدأت خيوط وشبكات الأزمة، المحنة ماضية نحو التصعيد، لأن الحكومة كانت لا تعرف كيف تتعامل مع هذا الحشد الكبير.
الحرب ها هي تقرع الأبواب، دخلت إلى العائلة السورية فيها، فرقت شمل البيت السوري وخربته ومضى الجميع كلٌ إلى جهة ما.
كنت على الدوام أتفقد أخواتي التي تزوجت كل واحدة منهن في محافظة، أسأل عنهن يومياً الواحدة بعد الأخرى، فكل واحدة منهن قد رماها القدر بنصيب من الألم، الحركات المتطرفة أخذت تثبت أقدامها على الأرض السورية، واستقرت هذه المجاميع مسيطرة على أرواح

وأنفاس السكان، سألتُ عن هذا العذاب، ولكني أُفاجئ بأن الواقعة قد وقعت ولا مندوحة من الهروب إلى أرضٍ يعم فيها الأمن والأمان، إلى هذا الحد سوريا أصبحت مهددة، فهي مهددة بالدمار والتخريب ولربما الموت، رحماك يا رب، رحماك يا إلهي، الشُبان مالوا باندفاع نحو زيادة حدة الخصام، وتعنت الحكومة وتمرد وغرور المعارضة هو الذي سبب بإندلاع الشرارة، يومٌ كأنه القيامة، على حين غرة يسمعون صوت إطلاق نار كثيف في كل الاتجاهات، ينشدون الأمن والأمان، يطلبون أن يسلموا بأرواحهم، إخوتي شُردوا من ديارهم وانقسمت رؤاهم، فهذا متعاطف مع الحراك الجماهيري ومال إليه، ولكنه وجد نفسه يجب عليه أن يحمل السلاح ليواجه السلطة السلاح، وبالتالي انقسمت العائلة شرُ تقسيم، كما انقسم الوطن الأم إلى عدة أجزاء، وكل جزء منه خاضع لجهة مستحوذة عليه.

كنتُ أغلي كالجمر، على إخوتي ومصيرهم، فبيتنا احتوى التناقضات، أخواتي متزوجات وعند أزواجهن، يلاقينّ ذات المصير معي ومع هدى، أمي تموت في اليوم ألف ميتة، وأبوي أصابه العجز وأصيب بصدمة أدت إلى شلل دماغي، فبقي عاجزاً لا حركة ولا سكنة، إخوتي أصبحوا متلاحقين فهذا مع الحكومة وذاك مع التظاهرات، فهم شباب وقد استهواهم الحس الوطني والاندفاع الجماهيري نحو

الخروج والتظاهر، خرج الإخوة إلى الموت معـًا لكن على جبهتين متضادتين، أيمكن أن يتلاقى الإخوة في معركة ويكون أحدهم خصمـًا للآخر، ما أقسى تلك الحرب التي يقتل الإخوة بعضهم بعضـًا، ساد انعدام الأمن والاضطراب في عموم البلد، فكيف لمنطقة تنام هنيئة وجارتها تعاني الموت البطيء! سألت أبي:

- نعم.
- لمَ الحرب هذه؟
- بحسرة وألم، يا ابنتي إنها فُرضت علينا وكأنها قضاءٌ وقدر
- وهل كتب أن تعيش سوريا هذا الدمار!
- لا أعلم، لكنهم لا يريدون لها خيراً.
- من؟
- أعداؤها.
- من هم أعداؤنا؟
- الذين لا يريدون لنا الخير.
- وماذا فعلنا لهم لكي يفعلوا بنا هذا؟
- إنها المصالح الدولية يا حبيبتي.
- لعنهم الله.
- آمين.
- وأخوتي.
- بعد حسرة وتنهيدة ثم دمعة، الله يهديهم ويحفظهم.

- بأيُّ ذنبٍ يقتل هؤلاء الشُبان؟
- لا ذنب لهم والله.
- أبي إني أحترق يوميًا، وأكاد أموت، في اليوم ألف ميتة، على إخوتي.
- أبي هل يعودون إلينا جميعًا سالمين غانمين؟
- يصرخ من البكاء، وينشج نشيجًا عاليا، ويصيح أبنائي، أبنائي، أبنائي.
- تبكي معه وتلطم وجهها بحرقة على إخوتها، وما يلاقونه من العذاب.

وأبقى مع والدي أواسيه ويواسيني وقلوبنا مترعة لهذه المأساة اليومية، نريد حلاً لهذه المأساة التي عصفت بنا، فكيف يكون الحل والحرب هي بين إخوة من أبٍ وأمٍ واحدة!

اثنين مع الحراك الجماهيري واثنين مع الحكومة فلا هذا يتمكن من الخلاص ولا هذا يتحرر، وأمسى الإخوة في معسكرين متضادين يقاتلان بعضًا، لكني قلت لأبي:

- الحل هو أن نهرب جميعًا.
- مَمَ نهرب؟
- من هذا الموت الذي يسري فينا.
- كيف نهرب وقد خُطَ علينا هذا القدر وكتب؟

- سنذهب كشأن ألاف السوريين الذين بدأوا يفرون بسبب الحرب.
- وكيف نترك بيتنا وممتلكاتنا؟
- من أجل خلاص أنفسنا وأرواحنا وأعراضنا يا أبي.
- يصمت ويعتريه يأس قاتل، لكنَّهُ نطق كمن في فمه عظمٌ، لنمضي إذن.
- ومن الآن سأرتب الأمور.
- لمَ هذه العجلة يا ابنتي!
- ولماذا نبقى؟ أنبقى لكي يقتل إخوتي بعضهم بعضـًا، أم ننتظر أن نسقط أسرى بيد المسلحين.
- يبكي على هذه الخيارات المؤلمة، ولكنه لا يرد لأنه يُدرك إني على حق.
- أحاول أن أقنعه بالهروب كلاجئين، ولكنه يزداد أسى وحيرة وألمـًا على عائلينا، وكيف له أن يجمع شملنا، فإحدى بناته في محافظة الرقة التي سقطت بيد الإرهابين وهي محاصرة لا تتمكن من الهروب حتى.
- وأُختُكِ؟
- ما بها؟
- كيف سنخرجها؟

- هي مع زوجها وأطفالها، وهي بخير وعلى خير، الإرهابيون يقتلون أيَّ أحد ولا يستثنون أحدا، وأنا أخشى على زوج أختك.
- ممَ تخاف؟
- أخاف أن يقتله الإرهابيون وتبقى أختكِ أرملة زوجها وأهلها.
- أحتار بماذا أرد لكني قلتُ: لنبقى نعيش ما كتب علينا، ولنسلم أمرنا إلى الله عسى أن يأتي الفرج قريبـًا.
ولما بدأت المناوشات بين أطراف الخصام في مدينة حلب التي سارع إليها المسلحون للاستحواذ عليها، بادر كثير من الأهالي إلى النزوح ليلاً، هرباَ من الموت الذي يريد الاقتراب منهم، ولعله وشيكـًا سيصل إليهم، سارنا ليلاً على قلة المؤونة والمتاع، تركنا كل شيء ورائنا وهربنا بأرواحنا، كان الإعلام يطبل لإشعال فتيل الفتنة بين أبناء الشعب الواحد، كان الجيش السوري أمام موقفٍ محرجٍ فهو أمام مجاميع مسلحة خارجة عن القانون، وبدأت هذهً المجاميع تعيث في الأرض فساداً ودخلت هذه المجاميع إلى التظاهرات لتحرفها عن روحها السلمية فتغلغلت بها، وبدأت تهدد الأمن السوري، والحق إنّ هذه المجاميع وجدت مؤيدين لها في بعض المناطق التي سيطرت عليها، كانت هناك مطالب وطنية معروفة وواضحة نادى بها أبناء

سوريا بكل سلمية وبكل روح وطنية آملة بتحقيق مطالبهم المشروعة، لكن هذه التظاهرات البريئة التي خرجت بصورة عفوية سُيّرت وحُرفت عن طريقها المستقيم، لأن هناك قوى خارجية دخلت وأخذت تميل بالتظاهرات أن تنحو منحى التصعيد المسلح، وبذلك سيكون الاقتتال والموت والخراب، نعم إنها لمؤامرة يتعرض لها الشعب السوري ولكن كيف سيفهم الجمهور الخطاب التحريضي و خطاب الكراهية، بعض حماس الشباب كان مفرطًا وبعضه كان متزنـًا، ملامح الغضب بدأت من خلال لغة التصعيد الطائفي الذي بَثَّهُ بعض المعممين وبعض رجالات الدين وأئمة المساجد، الشعب مال بطبيعته نحو رجل الدين لأن هنالك ارتباطً روحي بين الدين ومشاعر الشعب، لأن الدين كان وما زال سيبقى لاعبـًا له دور كبير في تسيير الشعب، ولكن الدين أصبح ألعوبة بيد صعاليك ومرتزقة لا يعرفون من الدين لا اسمه ولا رسمه بل هم معاول لهدم وتمزيق نسيج الشعوب، رجالات الدين بدأوا يميلون إلى ترف الحياة وأخذوا يقبلون على الدنيا ينهلون منها ما وسعهم إلى ذلك من سبيل، ولكن الأقلية الصالحة بقيت مهمشة مستبعدة من إبداء الرأي والمشورة وأصبح الغوغاء هم أصحاب الرأي والقول، بدأت وحدات الجيش بالتحشيد، مال بعض الأهالي إلى الجيش لأنه درعهم وسندهم وها هو اليوم

محتاجٌ لوقفتهم، نهض من الجمهور ووقف مع الجيش ومن الشعب من مال أو تعاطف مع هذه المجاميع الجهادية ذات الأيديولوجيات الإسلامية، ولم تكن هذه المجاميع إسلامية بل حرفت النصوص وغيرت المحتوى والمضمون وأخذت تنشر الفكر المنحرف والمتشدد الذي هو أقرب إلى الكفر منه إلى الدين، الحكومة تعرف خفايا هذه الدعوات الجهادية وتعرف أسرارها ومحتواها ولكن الناس لم تعرف بعد حقيقتهم، وهنا الفتنة التي ما دخلت بلدٌ إلاّ وأحرقته، هذه المجاميع هي تابعة لدول في المحيط الإقليمي وغيره.

بدأت هناك مرحلة من التصعيد وهي التصعيد الطائفي، هذه الدولة لديها مذهبٌ وتلك لها مذهبٌ وهنا احتدم الصراع بين هذه الدول، هذه الدولة تحرك أجنداتها وتلك تحرك أجنداتها، الجيش السوري كان ثابت الرأي ولكنه عانى من إحباط وانكسار جعله يخسر كثيراً من مقومات النجاح والانتصار في دحر مجاميع الظلام، على غير موعد بدأت أصوات الرصاص تضرب كل اتجاه وخيمة لغة السلاح على الجميع، ذُهل الجميع من هذه الأصوات التي لم يسمعوا بها من قبل تقع بالقرب منهم، هي الحرب إذن، وعلى الجمهور أن يدرك إنه ربما سيطول أمدها وربما ستمزق من الشمل السوري كثيراً، ليلةٌ كانت كأنها ليلةُ الهرير الذي ذُكرت في كتب التاريخ والتي حدثت في معركة صفين، كانت هذه

الليلة قاسية على الجميع، أطفال، نساء، شباب، شيوخ، هذه الأصوات أرعبت الجميع وجعلتهم يصرخون ويستغيثون، أنبأنا أخي رامز على هاتف أجراه سريعـًا:

- ألو.

- مرحبا أبي.

- أهلاً بُنيّ، كيف حالك وحال أخيك، بنيّ ماذا حصل وماذا جرى، كأن القيامة قد قامت، النار والرصاص يمر فوق بيوتنا ونحن لا نتمكن من الهروب.

- أبي قد حدثت الحرب، وقريبـًا ستكون معركة كبرى مع هذه العصابات الإرهابية.

- الله يحمينا وينصركم، لكن ماذا نفعل نحن.

- عليكم بالنزوح يا أبي، لأن هنالك عملية عسكرية كبرى ستحدث وأعتقد إن العصابات ستتخذ الناس العُزل دروعـًا بشرية.

- إلى إين نهرب.

- اهربوا إلى أي مكان، المهم أن تنجو بجلودكم.

- لهذا الحد الوضع خطير.

- وأكثر من هذا يا أبي.

- انتبه لنفسكِ ولا تحرمنا من صوتكِ، ونريد منك أن تتصل بين حين وآخر لكي نطمأن عليك.

- نعم يا أبي، سأفعل، والآن سأذهب يا أبي.

– صحبتك السلامة، وكان الله معكم يا بُني.

ليلة كانت عصيبة علينا وعلى السوريين والتي لم يُشهد ليلة أشدُ منها، إنها الحرب عليها اللعنة، ولكنها أشرس حرب ستمرُ على السورين، لأنها بين السوريين بعضهم بعضـًا، الإعلام المعادي للحكومة السورية بدأ يشُن حربـًا لا تقل عن الحرب الميدانية، مدينة حِمص كانت هي أولى المدن التي سيطر عليها المسلحون، وإنهار الجيش فيها وذلك بعد أن أعطى قوافل من الشهداء، حتى رويت الأرض بدمائهم، الإعلام كان ينفث السُم الزعاف ويرمي به في داخل العائلة الواحدة، فأضحت العائلة السورية ممزقة العُرى والأوصال بعد الفتها ومحبتها وانسجامها، تمضي الرياح وتشتد الأمور، كان الرصاص كأنه رشقات المطر، كانت القوى المسلحة الخارجة على الحكومة مصرة على إسقاط حلب، والحكومة مصرة على الحفاظ عليها وبقاءها، فأضحت حلب مرمى الجميع، إذن وقعت حلب بين قطبي النزاع، هذا يريد السيطرة وهذا لا يريد الفقدان، فاشتعلت المدينة دون سابق إنذار لها، وعلت أصوات المدافع وقصف الطائرات يدك البيوت دكـًا حتى احترقت عشرات البيوت وبعض الطرق الخارجية.

بدأت موجات النزوح تتصاعد، العمليات العسكرية كانت حامية الوطيس، الكل يصعد من شدة الأحداث، تفاقمت

الآمور، لأن بعض الأنظمة الحاكمة في دول الجوار، كانت تراهن على إسقاط الحكومة، ولو نجح المخطط، لإسقاط النظام الحاكم لربما، أصبح حدثا مفصلياً، مثلما كان عام ٢٠٠٣ عاماً مفصلياً وجذرياً في تاريخ العراق الحديث، فقد تغيرت به كثير من ملامح وحياة العراقيين، إذن الحرب الإعلامية كانت قاسية على السورين وعلى الحكومة أيضاً بالأخص، صور الإعلام المضاد بأن سوريا ستسقط كلها بغضون ساعات معدودة، وإن النظام السوري لن يصمد، وبالأخص بدأت بعض المناطق تسقط بأيدي المسلحين، هناك عنصر الأكراد، وهو عنصر له دور مؤثر وحساس، لأن الكُرد كانوا دوماً يفكرون بالانشقاق، ويسعون لإقامة دولة باسمهم القومي، لكن الفُرصة لم تحن بعد، الأكراد ربما دعموا الحدث، لأنه سيشغل الحكومة عنهم، وبذلك يسعون إلى إعلان دولتهم، ونراهم رحبوا بالصراع الحكومي وبعض المسلحين، لكنهم لا يريدون أن ينتصر المسلحون، لأن ذلك يعني فنائهم جذرياً، تصاعدت الأحداث وبدأت حملات القتل تشن على الطائفة التي ينتمي إليها رأس النظام بغية الضغط عليه، حيثُ شنَ المسلحون أو ما يعرف بالمعارضة المسلحة، الحرب على الطائفة، التي ينتمي إليها قطب رحى النظام ورأس الهرم فيه، وبدأوا يسومونهم سوء المعاملة، الإرهاب لبس ثوب

الحراك الجماهيري وتقنع بقناعه، ولو بقيت التظاهرات مسالمة دون أن تلجأ إلى لغة العنف، لأن الدول المتربصة على المشهد السوري كانت تبذل كل ما تحتاجه الحرب، وبذلك وقع السوريون في مأزق، تجمعت عصائب الشر من كل حدب وصوب، بدأت تتكتل جموع من المحتشدين والكل أعلن الحرب ضد خصمه، الكل دعا نفسه مجاهداً! بدأت الحكومة تنشط من علاقتها وطلبت الدعم من أصدقاءها ليتمكنوا من دعمها في حربها التي تخوضها من جميع الجهات وبمختلف الأطراف.

كان الدم رخيصاً على الجميع، يا له من خطب، دم الإنسانية على الأرض يراق ولم يرف له قلب ولم تطرف لهم عين! يا الله رحماك يا الله، الحرب السورية لم يكن مثيلاً لها في التاريخ، فهي حربٌ أقل ما توصف به إنها وصمة خزيٌ وعار على كل من شنها وسارع في تأجيجها، النساء والأطفال يقذفون بالبراميل المتفجرة ويقعون تحت الأنقاض، كم عانى الأهالي من شدة ضراوة هذه الحرب؟ حلب كانت محط أنظار ثلاثة أقطاب، الجيش الحكومي والجيش المعارض، الذي هو الفصيل الأكبر لدى المعارضة والطرف الثالث هو تنظيم داعش الإرهابي، لأن الجميع يدرك إن خسارة حلب هي انهيار وخسارة كبيرة في المعركة، لذا نرى الأطراف تتقاتل وبقسوة لا متناهية

للسيطرة عليها، وحلب وقعت بمرمى النيران من ثلاث قوى متصارعة.

الإعصار المهول

ليلة كانت قاسية على الجميع، مضى الرعب في سكان القرية، نساءاً، أطفالاً، شيوخـًا وشبابـًا، الإعصار قادمٌ لا محالة، والموج سيكون سريعـًا، ليعلن عن الفوضى والدمار، الذي سيحل على السوريين، ها هو الموت يسري بهم، انهم لا يجيدون مصارعته وطرده حتى، رُوعت النساء والأطفال، ماذا سيحصل يا ترى، فربما القيامة ستقع، رحماك يا الله من غضبك، اللهم نجنا مما نحذر منه ونخاف، على صوت إطلاق النار، سرنا ليلاً، هربـًا من الموت، الذي يتخطفنا على يدي أطراف النزاع، لجأنا إلى منطقة لا يسمع صوت الرصاص فيها، لكي ننجو بأرواحنا، أخواتي المتزوجات توجهت كل واحدة منهن إلى جهةٍ ما، ناريا نزحت مع عائلتها المكونة من زوجها وثلاثة أطفال نحو الحدود الأردنية، ودلال بقيت في بيتها في محافظة الرقة التي وقعت تحت سيطرة داعش فيما بعد لأنها لم تتمكن من الخروج من بيتها، فاتن قررت أن تمضي مع زوجها إلى تركيا، لأن أقارب زوجها هناك، ولديهم الجنسية التركية، أما رقية فبقيت منتظرة مصيرها مع زوجها الذي قرر أن يسافر مع عائلته نحو أوربا، كان عمر أختي رقية ٢٩ عامـًا وترتيبها السابع بين إخوتي، متزوجة من مصطفى البالغ من العمر ٣١

عامـًا، ولديهما طفلان منه أحداهما في التاسعة واسمه منير والثاني عبد الله وعمره سنة ونصف، كان مصطفى يعمل صائغـًا وحالته المادية فوق المتوسط بقليل، قرروا أن يلجئوا إلى أوربا، عسى أن تنكشف الأزمة، وبعدها يعود إلى وطنه سالمـًا برفقة عائلته، وبالفعل قصدوا تركيا عبر البحر، لأن القتال ما زال مستمراً قربهم، النار وأصوات الرصاص كانت على طول الطريق البري، إضافة إلى ذلك إنهم فضلوا الموت غرقـًا على الموت بالسكين، الذي أمسكته العصابات الإرهابية، قصدوا البحر، وصعدوا الباخرة وهي تشق طريقها متجه نحو أراضي تركيا، تعرفوا على الألم بمعناه الحقيقي، وكيف إن الحرب السورية هي أقسى الحروب، التي حدثت في العصر الحديث، فهي بين أبناء الوطن الواحدة والدين الواحد ولربما أبناء الحارة الواحدة! لأن هذا يرى إن الحكومة تمثله فيتعاطف معها ويقف معها، وهذا يرى إن الجماهير غُرر بهم وحُرفوا عن معناهم الحقيقي السلمي، ويرى آخر أن يجب أن يفرق بين المعارضة الصحيحة والعصابات الجهادية التي تكونت أثناء الأزمة، سوريا أصبحت ساحة المعركة الحقيقية لدول عدة منها دول الجوار ومنها الدول صاحبة اليد الطولى في صنع القرار بما يخص الشأن العربي.

ليلة من ليالي شهر كانون الأول، وفي ساعة من ساعات الليل البهيم، أقبلت عاصفة قوية وباردة، ضربت القارب وجعلته يفقد توازنه، صاح الأطفال والنساء، وبقيت السفينة تترنح كأنها تريد أن تنقلب بمن فيها، رحماك يا الله، رحماك يا رب الأرباب، هؤلاء أطفال ونساء، فما ذنب هؤلاء يا ترى، ألم يقال: ارحموا الضعيفين النساء والأطفال، فما بال السماء تعرض بوجهها عنهم! ربما أراد الله تعالى أن يموتوا بهذه الميتة القاسية ليكونوا شهداءً عنده؟ أو إنه أراد أن يخلصهم من الموت بالسكين والرصاص، فأماتهم غرقًا، لعلّ البحر يكون أرحم من السكين!

أخذت تتمايل السفينة، وتفقد توازنها شيئًا فشيئًا، حتى بدأت تترنح، وما زال الجميع يصرخ بأعلى صوته، ومازالت الأطفال تبكي وتبكي حتى حدث ما جعلهم يسكتون وربما أسكتهم أبداً، وذلك إن أعرضت السماء وتركتهم لحكمة هي أعرفُ بها وأعلم، انقلبت السفينة بمن عليها، بردٌ قارسٌ، ومياه متلاطمة، وليلٌ دامس، وصراخ أطفال وعويل نساء، وذهول شيوخ ورعب شباب، كل هذا حدثت في ساعة، من ليل ما أقساه من ليل، إنه ليلٌ ، راح ضحيته أكثر من مئة روح ما بين أطفال رُضع وشيوخ وشباب، ونساءٌ كالياسمين إن حُركت انكسرت، فاتن أخذتها الحادثة ورمتها هناك، وزوجها بجانبٍ آخر، أما ولداها فلقوا

مصرعهم، وهم يبكون فزعين، من هذا الموت الذي خطفهم على حين غرة، ما زالوا يصرخون ويبكون ويستغيثون ولكن في عرض البحر، لا يوجد من يغيثهم، صياحهم بدأ يخفت شيئًا فشيئًا حتى هدأ الجميع، ولم يعد يُسمع من هناك أيّ صوت!

وهكذا انتفعت اطراف النزاع بهذه الحادثة فأصحاب الحكومة رموا بالتهمة على المعارضة والمعارضة رمت الحادثة على الحكومة!

ولما قضوا نحبهم شهداء، بدأ الإعلام ينتفض لهم، وأخذ يطبل لما يوافق سياسته، الحكومة والمعارضة، كلٍ منهما قد انتفع من هذه الحادثة إعلاميًا، وكأنهم فرحوا بهذه المأساة الكبرى، حتى الأسماك الكبيرة والمتوحشة أنفت أن تأكل لحوم هؤلاء، الذين هربوا من الموت، لم تشارك الأسماك الإنسان بقتل الإنسان، فما بالُ البشر يقتلون بعضهم بعضًا وقد حرمت عليهم كل الأديان والقوانين حرمة الدم.

هناك صورة قد ضج الإعلام لها، طفلٌ مُلقىً على وجهه، وكأنه غاضبٌ على الجميع، لذلك لم يعطهم وجهه، وبقيت جثته برهة من الزمن، ليأتي الإعلام ليلتقط الصور، وكأنه قد وجد صورة الموسم، التي ستضج الإنسانية ثورةً على هذا الطفل البريء! ولكن ما زالت الإنسانية لفي شغلٍ عنه!

هربوا من الموت بواسطة الرصاص والسكين فأمسك بهم البحر وسلبهم الروح التي فروا بها، القدر لم يجعل هذه المرأة، تنجو بنفسها وعائلتها حتى حصل ما حصل، حنانك يا الله، يا رب السماوات حنانك على طفل يموت غرقًا وهو بعمر ثلاث سنوات، اقشعرت عند سماع نبأه كل الناس، وجدوه ملقىً على وجهه على جرف البحر، عسى أن يثير ضمير الإنسانية! أيقتلُ وهو بهذا العمر والإنسانية مشغولةٌ عنه؟ منظمات حقوق الإنسان هي منظمات تديرها الدول الأكثر عنفًا ودموية، يدعون حماية حقوق الإنسان وحكوماتهم تدعم وترعى الإرهاب لكي يسوم الناس العذاب والموت الزؤام، لكِ الله سوريا كم سيعاني أبناؤكِ، لكِ الله سوريا كم سيعاني نساءكِ، من الثكل والترمل، لكِ الله سوريا كم سيعاني شُبانكِ من التشرد والضياع، بينما يتصفح سامر عبر صفحته على موقع الفيس بوك إذ يرى حادثة غرق السفينة، ويرى صورة ابن أخته تتداولها صفحات النشر، انذهل وكاد أن يصعق لهول هذا الخبر المفجع، الذي دهم هذه العائلة، يصرخ من فرط البكاء، تقبل عليه أخواته نرجس وهدى وتسأله نرجس عن سبب بكاءه فيرد: انظري، وترى صورة ابن أختها وهو غارقٌ ومرمى على جرف البحر، قرأت نبأ الحادثة ورأت إن أختها وعائلتها قد لقوا مصرعهم في اليم، أخذت تجهش باحر بكاء

وتولول وتصرخ هي وأختها، ويقضون ليلتهم يبكون حتى جفت دموعهم وجحظت عيونهم، تقول لأخيها ليتابع الموضوع ليرى أن ستدفن عائلة أختها، رحماك يا رب هذه ضحية تضاف لضحيا سوريا، يا الله من سيأتيه الدور بعد هذه الأقمار المشعة، وسلمت جثثهم إلى ذويهم، قرروا أن يُدفنوا في مدينتهم التي غادروها، غادروا هربًا من الموت بالرصاص والسكين فوجدوا إن البحر ينتظرهم ليأخذ أرواحهم، ولم تسلم العائلة من الفواجع والمحن وكأنها قطعُ الليل المظلم يتبع بعضها بعضـًا.

وفي أحد الأيام بينما هم نيام ليلاً في الساعة الثانية صباحـًا، بتلك المنطقة التي استقروا بها، منتظرين البشارات ماذا ستحمل، وإذ بهم ينهضون على صوت أرعبهم، وهذا الصوت صوت انفجار حصل على بعد أمتار منهم، مما زاد عزيمتهم على الرحيل لأن ساحة المعركة بين اطراف الصراع قد تحولت إلى منطقتهم.

في الليل البهيم ووسط الموت الذي يحيط بنا، سرنا يتخطفنا الموت خطفـًا، خرجنا بجلودنا وقليل من المتاع، مضينا مع بعض العوائل التي نزحت عن الأعمال العسكرية، سارت القافلة بالأطفال والنساء والشيوخ، أطفال بعمر الورد وبنات بعمر الياسمين يسيرون وأصوات الرصاص فوق رؤوسهم، ذُعِروا من هذه الحياة، وأخذوا ينهجون بالبكاء، فأخذت

الأخوات يلطفن بالصغار لكي يهدئوا ويسكتوا، كنت بهذا الوقت وبهذه الشدة أخذت أصبر أختي وأتلطف بأهلي لأخفف من هولهم، أين الدلال؟ أين التنعم؟ أين حياتنا الهادئة؟

قضينا الليل كله ونحن نطلب الأمن هربـًا من الموت، مضى هؤلاء اللاجئون، يطلبون الأمن عند دول الجوار بعدما فقدوه في بلادهم، وكانت قبلتهم هي لبنان، وقفوا عند نقطة الحدود التي تحاذي الحدود اللبنانية، هنا وقفوا ينتظرون الإذن والتأشير بالدخول، بقوا واقفين فأوعز لهم ضباط الحدود بأن مقامهم هنا سيطول فعليهم أن يحطوا الرحال هنا، لم تقبل دوريات الحدود بتأشيرة الدخول، بل أوعزت لهم أن يحطوا رحالهم ها هنا، وبالفعل جلس الجميع على الأرض بأثقالهم ومعاناتهم والموت من وراءهم محيط، نظرتُ ورائي لأرى ماذا حلّ في مدينة حلب الشهباء، وما أصاب قريتنا من تخريب ودمار، أخذت دموعي تترقرق على وجنتي حتى بللّت خدودي، فأنا أرى الحالة التي عصفت بنا، أرمقُ صبيانـًا ترضع من ثدي أمهم، وأرى صبايا بدأوا للتو بالزحف، فأتساءل لمَ نحنُ بهذا الحال؟ وما ذنبنا بهذا الصراع؟

تذكرتُ أيام الصبا واليفاعة البريئة، الحسرة بدأت تؤلمني وتأخذ من قلبي كلَّ مأخذ، كنت أنظر إلى أمي وأبي وقد

أحزنني منظرهما بهذه الحالة المزرية، كنت أشفق عليهم أكثر من نفسي، وعليّ أن أصبر فلربما المعاناة الكبرى لم تحن بعد! وربما قادم الأيام سيكون أدهى وأمرّ وأصعب، ولكني صبّرت نفسي بأن المحنة لم تلبث أن تزول، ونعود إلى بيتنا سالمين، هي ليلة لا أكثر وسندخل إلى لبنان، هي ليلة لا أكثر وبعدها سنرتاح ونعود إلى الوطن، هي ليلة لا أكثر ونجتمع جميعـًا على مائدة واحدة والحب هو طعامنا والفرح هو شعارنا، في غلس الليل الحالك بظلمته، وقفت العوائل النازحة منتظرة الإذن، كانوا يحسبون إنّ الإذن سريعـًا ما سيحصلون عليه! كعادتهم سابقـًا، ولكنهم فوجئوا بأن الإذن سيطول ويطول و يطول، الأطفال لم يناموا لأنهم يرتعشون من شدة البرد، الأمهات مشدوهات ماذا يفعلن بهذه الكارثة! والرجال كان أغلبهم من الشيوخ، لأن الحكومة لم تسمح أن يخرج الشباب، بل بقوا وهم ما بين مؤيد ومعارض وشخص ثالث لا يعرف إلى أية جهة يميل، الحرب تشتد، وتُقرع طبولها، والجميع يُصعد بلغة العنف، والكل متهيأ للصراع وكأنهم مدعوون لهذه الحرب ، بدعوة عامة إلى وليمة ، وربما هي وليمة بالفعل، لكن الذبائح التي طُبخت هم بشر ويا لها من مصيبة! انعكاسات الحرب كانت خطيرة جداً، لأن التظاهرات التي خرجت في عموم سوريا، كانت تنشد الحرية وإطلاق سراح المعتقلين السياسيين،

أمور كلها مدنية وتصب في الصالح العام، لكن العملاء والدول المتربصة التي تراقب المشهد السوري عن كثب سيَّسوُها وحرفوُها، أخذت أنظمة المخابرات لبعض الدول العدائية تزيد من أنشطتها لتثير الشعب، ولعل أقسى الحروب هي التي يخوضها الشعب الواحد مع ذاته وأبنائه، انتظرنا تأشيرة الدخول يومًا وآخر وغيره حتى انقضى أسبوعًا كاملاً، وكلما مضى يوم واشتعلت الحرب كلما إزادة أعداد النازحين الفارين، انقطعت وسائل الاتصال بين أفراد العائلة، ومضى كلٍ منهم بهمه ومعاناته، أقسى حالة مرت عليها عائلتنا وهو انشطار أبناءنا إلى قسمين، اثنان مع الجيش الحكومي واثنان مع الحراك الشعبي المنتفض، وهذا يطلب دم هذا، فأيُّ حالة وصلت إليها الإنسانية وأيُّ قساوة وصلت إليها، ألهذا الحد وصلت الإنسانية وهي أن يقتل الأخ أخاه!

تعرفتُ على إحدى الصديقات وقد تعجبت من صديقتي، لأنها كانت وحيدة ولا أحد معها، هي هربت من الموت والدمار، الذي راح ضحيته عائلتها كلها، ومن فرط دهشتها لرؤية أهلها مضرجين بدمائهم، أصابها خلل بعقلها، لكنها ما زالت محافظة على ثلث عقلها، تلك الفتاة تبدو في ربيعها الخامس عشر، جميلة الملامح، ذات قوام رشيق، شقراء، طولها معتدل، وجهها ملائكي، براءتها علامة مميزة، تبدو

مكسورة الجناح، صادقتها وأتيتُ بها إلى عائلتنا لأضيفها كأخت لأخواتي، جلسنّ معـًا ونحن ننظرنّ لهذا الواقع، الذي عصف بنا على حين غرة، فنتجاذب بعضنا مع بعض أطراف الحديث وتبدأ كل واحدة منا بقص حكايتها، كان أسمها جمانة وهي بالفعل كانت جمانة في شكلها وروحها، ووجها متوردٌ كأنه فلقة قمر، عيناها واسعتان زرقاوين، وأنفها مستدق ومعتدل، وفمها صغير كأنه فم فتاة لم تبلغ من العمر عامين، تسألني جمانة:

- من أي المدن أنتم؟
- حلب.
- يا الله ما هذه الصدفة!
- كيف؟
- أنا من حلب أيضـًا.
- حقـًا! من أين؟
- ريفها الغربي.
- حقـًا إنها صدفة.
- وأنتِ؟
- ريفها الشرقي.
- إذن اجتمع جانبا حلب الشهباء هنا.
- ولكن ما أقساه من اجتماع!
- مصيرٌ كُتب علينا.

- وما ذنبنا نحن؟
- لا ذنب لنا، ولا نعرف جرمًا ارتكبناه.
- جمانة تخاطبني: أريد أن أموت.
- لمَ حبيبتي!
- تنهدت، أهلي يا نرجس.
- ما بهم؟
- أخذت تبكي وتنشج وتصرخ من فرط البكاء، رأيتهم بهاتين والله.
- ماذا رأيتِ؟
- دخل علينا مسلحون يرتدون الثياب السود، يدعون الله أكبر، محمد رسول الله.
- وبعدها.
- أخذوا أهلي عنوةً.
- ماذا؟
- أمي بقيت تتوسلهم ليتركوا أبي وأخوتي لكنهم ، وأخت تبكي وتصرخ حتى كاد أن يغشى عليها.
- أكملي حبيبتي.
- سحبوا أبي من المنزل، وأخذوا يجرون به في الأسواق أمام العالم، ولا أحد يستطيع أن ينكر عليهم فعلهم ذاك، وأخذت تنشج من البكاء.
- ثم ماذا؟

- وبعدها ربطوا يدي أبي وطرحوه أرضـًا.
- نعم، وبعدها.
- أخذت تبكي وتبكي وتأنُّ من البكاء.
- مسحت دموعها بمنديل، احتضنتها، وأشعرتها بدفء الأخوة الذي فقدته.
- بعدها أطلقوا الرصاص على أبي، وأمطروه بوابل من الرصاص، حتى تمزق جسده من الثقوب، التي نخرت جسده، ولم يتحمل أخي ذلك المنظر، حتى ركض ورمى بجسده على جثة أبي، وأخذ يشتمهم، ولما رأى أولئك المجرمون هذا المشهد، بادر زعيمهم بإعطاء الإشارة إلى أحدهم، ليضيفوا إلى قائمة الشهداء شهيداً آخر! أخذوا يمطرون أخي بالرصاص، حتى رأيته يرفرف كطيرٍ مذبوح، كطيرٍ مذبوح والله، وبقي يرفس برجليه ويصرخ حتى فاضت روحه، وانتقلت إلى بارئها وهي مخضبة بدمها، رأيت المشهد بعيني هذه، كيف لي أن أعيش من دونهما! كان يود أبي أن يعيش، ولو تحت حكمهم لنبقى بحماه وحميته ورعايته، رأيت أخي كيف تحدى الموت بطلاً شامخـًا، رأيته يرمقني بنظرة، كأنه يقول هو الموت فأصنع ما أنت صانع، رأيته يحاول أن يعيد الأمل والبسمة والأمن لي، لكنها يد الإجرام أبت إلاّ أن تقتله، نرجس إنّ أخي كان آية من آيات الخُلق والأخلاق، كان لديه حُلم، لا بل لنقل أحلام،

كان الوحيد الذي يزرع البسمة في حياتي، رحل يا نرجس ولن يعود، رحل أخي يا نرجس ولن يعود كما رحل أبي ولن يعود.

- سألتها وأنا محتضنة لها، وأمكِ وباقي أسرتكِ؟

- أمي آه يا أمي، أمي آه يا أمي، عندما رأت زوجها وولدها بهذا الحال، جُنَّ جُنونها، ووقعت مغشيًا عليها من فورها، لم يقتلوها بل هي من أبت أن تعيش بعد زوجها وولدها! ورحلت معهما إلى جوار ربها الذي اشتاق لهم واشتاقوا إليه، فالتقوا عنده، هناك في منزلة الشهداء يقبل ثلاثة أفراد كأنّ ووجوههم النور، ليدخلوا مع الشهداء مجتمعين مع بعضهم بعضًا، مضوا وتركوني وحيدة!

- يرحمهم الله.

- اللهم آمين.

- وكيف هربتِ من الموت؟

- إنها لقصةٌ طويلة يا نرجس، طويلة بحجم معاناتنا.

- صدقتي والله.

- خرجت في نفس اللحظة التي رأيت أبي وأخي قد لبسوا لباس الشهداء والتحقوا بركب القافلة.

- نعم.

- خرجت متخفية مع المارة، وكان هناك أقلية، قد خرجت ليلاً، لتفر بجسمها وروحها من المجرمين، سرت معهم وبقيت أسير معهم، حتى وصلنا إلى مفترق طريق.
- نعم.
- وبعدها أخذنا نعبر الطريق بسرية ، لئِلاّ ينكشف أمرنا، وبالفعل مضينا الليل كله ونحن نمشي رجالاً ونساءً، شيوخـًا وأطفالاً يتخطفنا الموت من كل جانب.
- وبعدها.
- أقبلنا حتى عبرنا جميعـًا، الطريق الذي لم نجد به أي فرد من أفراد الجيش، كنا نخشى الجميع، الجيش، المعارضون، الإرهابيون، لأنهم يريدون أن يتخذوا منا دروعـًا بشرية لكي يسيطر أحدهم على الآخر.
- وبعدها ماذا حصل؟
- وصلنا إلى الحدود دون أن نشعر بأننا قطعنا كل هذه المسافة الطويلة ونحن نمشي.
- قاطعتها: هو الخوف يا جمانة، الذي قطع لكم هذه المسافة الطويلة.
- أجل والله وهل غيره شيء!
- ولما وصلنا عند الصباح تكاثر عددنا وأصبحنا قافلة كبيرة
- لكن الذي أبكاني....
- ماذا يا حبيبتي؟

- إنّ الجميع مع عوائلهم، لم أجد بنتًا لوحدها تمضي إلاّ أنا مضيتُ وحدي، لوحدي يا نرجس وبكت وأطالت بالبكاء.

أخذتُ أمسح دموعها، واحتضنتها بحرارة، وصبرتها وواسيتها على محنتها العظمى ، ومصيبتها الكبرى وفجيعتها الأليمة، بقينا نتسامر ألوانـًا من المعاناة، وكل واحدة تقص على الأخرى مصيبتها، أعربت لها عن ألمي ومصيبتي التي هي شر مصيبة، وأدهى رزية وأصعب موقف، وهو إن اثنين من إخوتي مع الحكومة ، وأحدهم استشهد، والباقون فروا بأرواحهم، لأنهم لا يريدوا أن يشتركوا بإراقة الدم السوري، فاعتزلوا الأزمة، تنذهل جمانة من هذا النبأ، وتصاب بالدهشة، الجرائم بحق الإنسانية، يشيب لها الجنين ويصعق من هولها الشيخ الكبير، وإذ بجمانة تتحول لتكون هي من يخفف ويكفكف دموع صديقتها، هنالك تتشابه المعاناة إلاّ إنّي أفترق عنها في إنّ لديّ أمل بعودة إخوتي سالمين معافين من أي إصابة، ويعود شمل العائلة كما السابق، ولكن كيف يعودون! بدأت الدول التي تراقب المشهد عن كثب، بإعلانها الحرب ضد السوريين، وذلك عندما بدأت القوى العظمى، تنقسم إلى شطرين احدها مع الحكومة الحالية، وأخرى مع المعارضة، وأخرى دعمت الفوضى، لأن مصلحتها تكمن بالفوضى العارمة فأخذت تدعم المجاميع

المسلحة لتزيد من اشتعال فتيل الأزمة، لا يهمها أن ينتصر فريق على آخر، مادامت مصالحها محفوظة، بدأت المحنة تتراكم وتزداد سوءاً، عندما ظهرت خلايا إرهابية بصبغة إسلامية متزمتة، بثوب يعود إلى القرن الأول الهجري، كل هذه الخلايا الإرهابية، اتخذت من الجهاد والدين ذريعة لمد سيطرتها على المناطق، في بدء الأمر مال الشباب إلى هذه الفصائل المسلحة، لأنها أقبلت بأيديولوجيا دينية، وذات غطاء مقدس، فمال أغلب الشُبان إلى هذه الحركات الضالة وهنا الطامة الكبرى التي أُضيفت إلى السوريين، قالت لي جمانة

- كيف بدأت هذه المحنة ومن هو المسبب برأيكِ؟

- بدأت من تجبر الحكومة، وعنجهيتها وسياستها الدكتاتورية، والمسبب هو الدول بأجهزتها المخابراتية، التي لا يروق لها أن ينعم السوريون بوطنهم.

- ومن هذه الدول؟

- ذات الاستكبار العالمي، ومن لا يهمها العرق الإنساني فعبثت بالإسلام والمسيحية.

ولماذا مال الشعب لدعواهم؟

- لأنهم أقبلوا بمصطلحات رنانة، تسلب الأسماع ، وتملك مجامع القلوب.

- ولا تنسيَ الجهل والتخلف هو أحد تلك الأسباب.

- بل هو سيدها، لأننا لو كنا، شعبًا واعيًا، لأبصرنا الحقيقة واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار.
- كيف يا ترى؟
- من أبسط شيء.
- وهو؟
- هذا التدافع والتقاتل فيما بين هذه الدول علينا.
- نعم، ما أقبحهم، وما أقسى قلوبهم.
- لو كان لهم قلوب أو ضمائر لما فعلوا بنا هذا الذي فعلوه
- كيف الحل لأزمتنا؟
- لعله الآن مفقود!
- ماذا!
- أجل وبكل ألم أقولها، فما دمنا أسرى بأيديهم، وما دمنا متحزبين ومتفرقين فكيف يرجى حلاً لنا!
- صدقتي، لكن هل من حل ليعود الشمل السوري من جديد؟
- لا، ولن يكون!
- لمَ كل هذا التشاؤم؟
- هو الحقيقة وليس تشاؤم يا صديقتي.
- كيف؟
- مادام هناك دمٌ قد أريق بيننا، فالضغائن لن تزول بليلة أو ضحاها.

– آه، والدم لا يمحوه إلاّ دم.
– أرأيتِ إلى أيٍّ مدى وصلنا.
– ولكن ، لا ينبغي لنا أن ننسى الأمل، لنصنعه نحن.
– وما تأثيرنا نحن؟
– فالأزمة أكبر منا، وتحتاج إلى عصـًا سحرية، لعودة ما كان على ما كان عليه.
– ومن يبادر بهذه العصا؟
– الجميع.
– إذن لن تُحل المشكلة.
– وهذه هي الأزمةُ بعينها.
– المعارضة بنظر الحكومة إرهاب، والحكومة بنظر المعارضة نظام دكتاتوري متسلط يجب أن يسقط ويحاكم.
– إذن لنقرأ على أنفسنا السلام.
– لنبتهل ، ونرى القادم ، ربما ستحملُ الأيامُ في طياتها ، ألقـًا وبشارة خيرٍ وبلسمٌ يلتئم به الجرح السوري.
– إذن لندعو الله مخلصين، ونجعل قلوبنا تهفو إليه راجية الأمل والحل منه، وإن كنت أشك بذلك لأن الدم قد سال!
بقيت إحداهن تصبر الأخرى، يوم ويوم وآخر وشهر وآخر، وتدوم المعاناة لأكثر من ستة أشهر، وهم ينتظرون بزوغ نورٍ، ليحل المشكلة، نرجس ترى حالة والدها بدأت تضعف وصحته تتراجع شيئـًا فشيئـًا لفقد أبنائه وضياعهم

منه، الأخ يقتل أخاه، هذه أقسى حرب فرضت على الإنسانية، حربٌ فرضت على السوريين، ولا ناقة لهم ولا جمل فيها.

الغرباءُ يصولون ويجولون بأرض الوطن، وأبناؤهُ مشردون بالفيافي يطلبون اللجوء، من هذه الدولة أو تلك لتؤمن لهم فرصة حياة، لحين انجلاء الغمة عن وطنهم، ذات صباح وعند فجر أحد الأيام يسمع صوت من إحدى المخيمات، يبادر الناس مسرعين إلى النداء، يجدون إنّ والد نرجس، قد أسلم الروح لملك الموت، وقد استراح من هذه الحياة التي أرهقته، وعبثت به كل العبث، وأصابته بكل أنواع الهموم والأمراض، لم يهنأ بحياته الأخيرة، بل قضاها متعبًا منهكًا، مصابًا بشتى الأمراض والعلل، ولم تعد له قابلية، لتحمل هذه المحن، التي عصفت به وبأهل بيته، كأنه توسل إلى الرب ليريحه من هذه الدنيا، ويبدو إنّ السماء كانت منصتة له فلبت طلبه فوراً وأراحته، وبقيت نرجس وأمها وأختها يندبن، والناس حولهم يتفرجون كأنهم يرون مشهداً يطيب لهم النظر إليه، ما أقسى تلك القلوب التي لم تحن لصراخ هذه البنات التي وصلت صدى أصواتهن إلى عنان العرش، ولربما أسمعت أهل السماء جميعًا، يبادر أحدهم ليزيح البنات عن والدهم ويأمر ثلّة من الرجال ليأخذوا الجثة، رفعوها وكبروا عليها وتشهدوا لله ولرسوله، لكنهم احتاروا

في دفنه وتغسيله، يأتي شاب في ريعان الفتوة والشهامة، نَّحوا البنات عن والدهن، وأخبروهن، إنهم من سيتولون هذه العملية لوجه الله.

غُسِلَ والدي، وذُهِبَ به إلى مقبرة قريبة، بقينا نحن البنات الثلاث، تعاني كل واحدة منا الألم الذي أصابنا، رحل هذا الأب، كان حلمه أن يرى أبنائه يحيطون به في ساعته الأخيرة، لعله رحل وفي قلبه غصة على هذا المصير القاسي الذي بقي أبناؤه يعانون منه.

أوضاع البلاد عمومـًا لا تدل على إنّ هنالك ثمةُ حل، فالأزمة آخذة بالصعود ولا من حلٍ قريب فيرجى، لأن لغة الحرب والقتال لا تجعل من الطرف المقابل يقنع بالسلم فكيف إذا كان السلم يعني زوال أحدهم والقضاء عليه تمامـًا، إنه جرح وأيُّ جرح ضرب أهل سوريا عمومـًا، الشباب يصارعون الموت، وئدت كل أمال الشبان وذابت طموحاتهم للنهوض بغدٍ مشرق لبلدهم، بقيت الحيرة تدب في أوصالهن، أُمهنَّ أصابتها صدمة حادة أودت بصحتها، الأخوة مشردين يقاتلون بعضهم بعض، فالأب ارتحل إلى رحمة ربه كمداً، وحسرة وأم تعاني آلام المرض الذي أصابها جراء فقدها زوجها الذي، كان سلوتها في عسرها ويُسرها، وما بين أبناء يقضون أقسى لحظات أيامهم، وبنات بعضهن عند أزواجهنّ وبعضهن معها، وحيل بين الأم وبين

أولادها، تلك هي الحرب التي ضربت سوريا، ما أقساها من حرب، مزقت الشمل، ودمرت الأرض، وقتلت كل شيء.

الأيام القاتمة

أيامٌ تتحول إلى كابوسٌ مرعبٌ، ويصبح الليل والنهار كأنهما صنوان في العذاب، فلا النهار كان يروق لهم ولا الليل كان بلسمـًا لجراحاتهم، أيامٌ سوداء ستحل في الفضاء، إنه الدمار المحتوم الذي كتب بلوح القضاء، تتعانق الأرواح ليلاً لأنها تخشى ألاّ يقبل عليها الصباح، همومٌ في القلوب تكاد تذيب القلوب أسىً ولوعة، تنام الناس ليلاً لتريح بدنها من تعب النهار وإرهاصاته ولكن الليل أصبح هو الذي يثير الأشجان ويوقظ المشاعر لتندب عزيزاً لا يعلم بأي أرضٍ ولا سماء ولربما لا يعلم أحيٌّ هو أم أصبح في عداد الشهداء، بقيتُ أنا وأختي هدى وأخي سامر نلاقي ذل النزوح وعذابه ،كان الطعام قليلاً والذي هو من فضلات منظمات حقوق الإنسان التي تتصدق على النازحين به، ألم والآلام تعتصر قلوب هؤلاء البسطاء العزل، لُعنت الحرب بكل ما وراءها، لا يوجد فيها طرف رابح، بل الجميع هو الخاسر، محالٌ على لغة الدم أن تكون رابحة، تخسر الأرواح والمادة من أجل أن يمسك زمام الأمر بيده، فيا ترى هل يوجد هنالك حلٌ وسط يجمع أولئك الفرقاء، فبالأمس كان الجميع شركاء، حتى في النفس الذي يعلو ويهبط، فما حد مما بدا! وانقلب الجميع يكفر بعضهم بعضـًا، ويستبيح

بعضهم دمَ أخيه الإنسان، هي المحنة الكبرى، التي ما دخلت بلداً إلاّ ودمرته، كان نصيب سوريا هذا الخراب والدمار، ما انكسر سيعاد، هذا الشعار كان يردد لكنه للأسف لا ينطبق على المحنة السورية، فيا ليت الدم بقي محرماً عند الجميع، و يا ليت الأرواح كانت عزيزة عند الجميع، لكي تبقى هناك بارقة أمل، في الصلح والتراضي والنزول، لمطالب بعضهم بعضاً، لعل الشمل السوري فرقته اطراف الخصام، لكنه عاد وائتلف بساحات العراء والنزوح، وبقيت المخيمات هي التي تبث روح المحبة والأخوة بين أبناء الوطن الواحد.

هنالك تعرفتُ على إحدى البنات واسمها مريم، قصت عليّ قصتها، وكانت لبقة، ذات شخصية قوية، جريئة، لا تعرف الضعف، كانت قد فقدت اثنين من إخوتها، وذلك عندما أقبلت دورية من الأمن واشتبهت في هذين الشابين، فأُودعوا السجن ، كباقي السجناء الشبان، بقيت مريم مع أمها وأبيها ولما بدأت المعارك تشتد بالقرب منهم، قرروا النزوح، وبقي إخوتها في السجن، والذين بعد أن أطلق سراحهما انضما إلى ما يعرف بالجيش الحر، حتى لقيا حتفهما في المعركة، عانوا مرارة الثكل ومرارة النزوح، وقساوة الحياة بظل هكذا حرب.

تُخبرني بشيء فاحتارت له واضطربت:

- نرجس لم لا نفكر باللجوء إلى أوربا؟

- بذهول شديد، وتعجب أشد أجبتها، ماذا!
- أجل لنطلب اللجوء من أوربا عسى أن تقبل إحدى الدول ونكون بمأمن هناك من هذا الدمار المحيط بنا.
- كيف لكِ أن تفكري بهذا الخيار الصعب يا مريم.
- لكنه ليس بصعوبة ما نمر به الآن، نذهب كما يذهب الناس جميعاً نطلب الحياة الكريمة بعدما فقدناها في بلدنا.
- ما زالت متعجبة ومنذهلة، كيف لبنت لم تبلغ العشرين من عمرها أن تفكر باللجوء والسفر نحو أوربا!
- لا تحاولي أن تضعفي عزيمتي باللجوء.
- لا أريد أن أضعف ولكن ، أقول كيف لنا أن نذهب وقد منعت كل دول العالم من دخول السوريين إلى أوطانهم.
- نعم، الجميع منع السوريين بصورة رسمية، لكننا سنذهب عن طريق البحر، أي بصورة غير رسمية وهنالك سماسرة يهربوننا.
- إنها لمخاطرة كبرى على حياتنا يا مريم.
- لو كانت لدينا حياة!
- إلى هذا الحد أنتِ مستاءة من الأمور.
- وأكثر من هذا يا نرجس.
- طيب، إن فرضنا إني اقتنعت بالسفر معك، كيف لي أن أترك أختي وأخي هنا؟

– يا عزيزتي أمامكِ خياران لا ثالث لهما إما أن يذهبوا معك وإما أن تتركيهم هنا.
– يا إلهي كيف لي أن أتركهم هنا؟
– هذه مشكلة أنتِ من يحسمها.
– كيف؟
– نحن اليوم نعيشُ عصراً كلٌ ينادي أنا وكفى.
– إلى هذا المستوى وصلت بنا الأحوال، أن نتنكر إلى قيمنا وأصالتنا!
– وأكثر من هذا، ولربما سنصل إلى مرحلة الاندثار، لقيمنا وأصالتنا وتربيتنا.
– لمَ كل هذا! أيعقل هكذا فعلت بنا الحرب.
– أجل.
– لكني مصممة على إنّ هناك أملٌ، سيلّوح في الأفق، ليخلصنا مما نعانيه ومن حربٍ فُرضت نفسها علينا فرضاً.
– ونحن كنا ومازلنا وقود لهذه الحرب التي فُرضت علينا
– كيف؟
– عندما تحزبنا، وأصبحنا شِيعاً وفرقاً وأخذنا نطلب الدعم والنجدة حتى من أعداءنا.
– المعارضة تطلب الدعم من دولة، وهي عدوٌ لدود لكل السوريين ومحتل، والحكومة تطلب الدعم من حلفائها، ولو

نظرنا إلى واقعنا لأدركنا، إن كلا الطرفين مخطئ، عندما يستنجد بالشيطان ليعتدي على أخيه.

- ما زلتِ تؤمنين إن الدم السوري واحد؟

- وهل يجرؤ أحدٌ أن ينكر هذا!

- مهما تخاصمنا مع بعضنا البعض، سنبقى إخوة في العرق والوطن والإنسانية.

- حتى وإن سالت بيننا كل هذه الدماء؟

- تتردد وتتثاقل بالجواب، نعم حتى وإن سالت بيننا أبحر من الدم لابد أن يأتي يوم نمحي أثار الدم ونعود كما كنا وأفضل.

- ما هذه المثالية المفرطة ، التي تؤمنين بها فما دامت لغة الدم موجودة ، فمحالٌ أن يزيلها شيء غير الدم؟

- ليست كذلك، لكن أملي بأن تعود اللُحمة السورية، تندمج ويتآخى الشعب مع بعضه.

- لا أظن أن ذلك سيحصل أو شيء من قبيله حتى!

- انتظري وسوف ترى عيناكِ، كيف يلتحم السوريون بعد أن يكتشفوا المخطط المشؤوم، الذي حِيك ضدهم.

- لا أراهم كذلك.

- لمَ؟

- لأنّ الدول التي مزقت الشمل السوري، تركت تبعية لها وأحزاب تنطق بلسانها، حبيبتي سوريا أضحت متحزبة

للخارجين، الذين طرئوا عليها، وهذه الدول بدأت تضع مواطئ قدم لها، هنا مرحلة خطيرة وهي مرحلة التغير الديموغرافيً، إنها محنة العقل المتخلف الذي وقع فريسة للمذاهب الهدامة، التي فرقت وما زالت، تفرق الناس عن بعضهم بعضاً.

- إنها مأساتنا العظمى يا حبيبتي.

بعد هذه المحاورة يلجأن إلى الصمت المحزن، هذه تنتظر أن تحين الفرصة، لتذهب نحو أوربا لاجئة تنشد الحياة، وهذه مترددة مضطربة لا تعرف إلى أي اتجاه سيأخذها القدر، قرر أخوها أخيراً، بالدخول إلى لبنان، ليحصلوا على مأمن، وليجدوا فرصة عمل تمكنهم من العيش، يا ترى كيف استقر بهم الرأي نحو لبنان؟ تودع بلدها باحر وداع وألظى اشتياق، دخلوا إلى لبنان في عام ٢٠١٤، كان دخولهم بصفة لجوء ، ولكن بطريقة ذكية منهم لكي يتجنبوا طرد الأمن اللبناني لهم، منهم من دخل بحجة السياحة، وبقي في لبنان، لا يود أن يعود ومنهم من دخل بعد إذن السلطات لغاية هي تعرفها ومنهم من سمحت له السلطات بالدخول فاستقروا!

كانت مخيمات النزوح عبارة عن موت بطيء يسري بهم، قضوه بأرواح كادت أن تزهق، لكنهم صبروا وصابروا حتى أتاهم الحل أخيراً، الحل هو أن يتركوا وطنهم، ليبحثوا عن مأمن في باقي الأوطان، لكِ الله سوريا كم كبيرة معاناتكِ!

علي وسامر كانت طريقة دخولهم صعبة نوعـًا ما، لأن الجيش كان قد فرض على الشباب ، أن يلجئوا إلى مراكز التطوع، ليكونوا جيشـًا رديفـًا مع الجيش الأساسي، الذي بدأ ينكسر شيئـًا فشيئـًا، مضى كثير من الشباب، إلى الجيش لكي يفدوا وطنهم بأرواحهم البريئة، ولكن علي وسامر كانا على يقين لا يخامره شك، في إن الحرب في سوريا هي دولية وليست محلية ولكن المصيبة الكبرى، إنها على الأرض السورية وبين أبناء سوريا، كيف يفهم هؤلاء السوريون ما يُحاك ضدهم، وإن ساحات التظاهرات خُذلت وحُرفت عن مطالبها الوطنية، وألبستها الدول المهيمنة على سوريا ثوب الإرهاب، لكي تعطي الذريعة للحكومة بقمعها وكسرها، وهذا ما حصل، التظاهرات بعد أن خسرت الدماء والأرواح، قرروا أن يردوا على الحكومة أيضـًا وجاء الردُ سريعـًا، عندما نهضت جحافل الشبان الذين يغلي دمهم ويفور على وطنهم وأرضهم، فبدل أن يمسكوا قلمـًا وقرطاسـًا ويمضوا إلى مدارسهم وجامعاتهم لكي ينتهلوا من معين المعرفة والعلم ما ينفعهم، بل أُعطوا سلاحـًا، ومزيداً من الرصاص وثيابـًا ملطخة بالدماء وروح الثأر، هكذا انشطر الدم السوري إلى شطرين، وانقسم الوطن إلى قسمين، وانقلبت الموازين بليلةٍ وضحاها، لتعلن عن سقوط

وانكسار للقوات الحكومية، وتقدم وسيطرة للمتظاهرين الذي كونوا جيشاً لهم باسم ، يدعى الجيش الحر.
تدخل لبنان لاجئة، باحثة عن فرصة للحياة، أسيرة أو كالأسيرة هكذا بدت نرجس ، وهي تدخل بلداً لم تدخله من قبل، كيف لها أن توفر معيشتها وتصون نفسها وها هي الآن تخوض في غمار الحياة، لتواجه الموت، الموت الذي يسري فيهم، دخلوا إلى لبنان وقلبهم واجفٌ، فهي وأختها لم تعرف كيف لهنّ، أن يواجهنّ صعوبة وعسر الحياة، في بلد لم يألفن العيش فيه، أنباء الحرب تشتد يوماً بعد يوم وآخذة بالتطور العسكري، وكأنّ الحلول مجرد وهم وخيال، الجميع مصمم على النصر والحسم العسكري، جميعهم اشتركوا بإراقة الدم السوري، فجميعهم مجرمون، ولن تُحل أزمتنا بوجود هذه الأطراف، تمضي هائمة مع قافلة من المشردين الذين هربوا من الموت فوقعوا في ذل اللجوء، يجتمعون في مخيم لهم، يحيطون أنفسهم بهمومهم ومآسيهم، أطفال تصرخ، نساء مهدودة القوى، ورجال متعبون، وشبان مغيبون، تلك حالة السوريين، تبقى مع صديقتها وكانت أربطُ جأشاً منها وأمضى جناناً، وفي هذا الظرف يجب أن تكون الجرأة والشجاعة في كل المواقف، لأن الحياة صعبة فعلينا أن نكافح إن أردنا أن نعيش، قلبها مع من يا ترى، أخواتها التي بقيت مع أزواجهن وهم يعيشون أقسى

ظروف؟ أم إخوتها الذين انقسموا إلى ثلاثة أقسام، قسم مع الحكومة وأخر مع المعارضة، وقسم اعتزل الفتنة ومضى إلى سبيله.

كانت صديقتي مريم صاحبة شخصية قوية وجلدة، مما جعلني أميل إلى صحبتها، فهي كانت تجازف وتشق الغبار، على العكس مني أنا تمامًا، الذي كان يكسرني أبسط الأشياء، مريم أدخلتنا إلى السوق الشعبي في بيروت، انتظرنا أنا هدى عند الباب، ومضت مريم إلى صاحبة المحل، فقصت عليها قصتنا، استدعتنا صاحبة المحل إليها وأخذت تسألنا كأنها تحقق معنا، كانت المرأة طيبة وتملك بقية من الإنسانية، بالوقت الذي تنكر الجميع لها، وأعجبها الأدب والخلق الذي نتمتع به، وقبلت أن نعمل عندها مقابل سبعة دولارات في اليوم، قبلنا هذا الأجرة على مضض، لأننا لا نملك خياراً غيره، فربما القادم سيكون أفضل وأفضل، بدأت هذه السيدة توضح لكل واحدة دورها في العمل، ولكنها كانت صارمة بالتعامل معنا، أخذت أصبر هدى ومريم، لأننا لا نملكن أيّ مأوى لنا ننعم به ويرتاح جسدنا.

كان هذا العمل هو الجنة الموعود بها، لهذه الفتيات من التشرد والضياع، فلربما لجأت إحداهن إلى السرقة ولربما أجبرت إحداهن لعرض جسدها لقاء بعض الأرغفة من الخبز!

تتداول أطراف الحديث مع صاحبة المحل عن الانقسام الكبير، الذي قسم المجتمع السوري إلى أقسام عدة، إن الجذور لنشأة هذه المجاميع المتطرفة قديمة، ولها كثير من الموروث الديني، الكل أخذ من الحديث ما يتفق مع فكرته التي يدعوا لها ويهمل الجوانب الأخرى، أيعني إن الجذور الأولى للتطرف موجودة في تراثنا الديني الذي ورثناه عن علماء السلف الأعلام والأئمة الكرام:

- نعم.

- كيف وهم دعاة التوحيد، أخلصوا إلى الدين أعظم إخلاص وبذلوا أرواحهم في تشييد دعائمه، حتى وصل إلى صورته هذه.

- إن الموروث الديني الذي دُس في التراث العربي هو سبب هذه الكارثة العظمى التي نمر بها.

- كيف ذلك؟

- الحكومات التي أمسكت بالسلطة بعد وفاة النبي محمد (ص) وخلفائه، لم تكن تملك رصيداً من التأييد لتحتج به على مكانتها في الزعامة السياسية.

جلستُ ذات يوم مع صديقاتي، نتسامر ألوانـًا من الحديث، قالت لي صديقتي السورية:

- أثقلنا على الشعب اللبناني كثيراً.

- كيف يا ترى؟

- فقد سلبنا فرص العمل منهم، وأخذنا ننافسهم على كل شيء.
- نحن نريد أن نعمل حتى نعيش ونحافظ على كرامتنا، ولن نقبل أن نكون معدومي الذوق لنأكل من فضلات أحد.
- هي الأزمة قد آذت الجميع وأصابتهم في شيء ما.
- وهل نتحمل هذه الجريرة نحن؟
- لا أعلم، ولكني أقول نحن ضحايا لا أكثر.
- صدقتي يا حبيبتي.

في أحد أيام الربيع بينما أنا جالسة لوحدي في الضحى، أخذتني قيلولة وأنا أتذكر تلك الأيام الخوالي التي كنت أعيشها مع أهلي، محاطة بعطف ومحبة إخوتي، أتذكر كيف كنت أجلس في أول الصباح لأدخل إلى حديقة منزلنا وأبدأ بسقي الورود في أول الصباح، وكيف كان يفيق إخوتي تباعًا وهم يصبحون عليّ وأتذكر كيف كنت أعدُ لهم قهوة الصباح وبعدها يمضون إلى سبيلهم، وبقيتُ شاردة الذهن في ربيعي البهي، إنها أيام كأنها حُلم وأنا الآن أعيش واقع حياتي، وهكذا توالت الإهانات والشتائم بحق السوريين المتواجدين على الأراضي اللبنانية، كنتُ أتوق لأرى اليوم الذي نعود به إلى دارنا وسأكتفي بقطعة من الرغيف اليابس وقدح من الماء، لكن الأزمة آخذة بالتفاقم والتصاعد، وحدة الصراع تزداد يومًا بعد آخر، أختي هدى كانت على العكس

مني، فهي لا تعبأ بما يجري حولها، كأنه لا فرق عندها هنا أو هناك، حتى إنها لم تتحدث في يومٍ ما، لنعد إلى بيتنا، وهذا مما جعلها لم تتعذب كثيراً.

بقيت أتذكر كيف كانت الحياة في مخيمات اللجوء، يعاني الجميع المرارة وقسوة الحياة، البرد والحر والجوع والعطش والموت والذل كل هذه الأمور وعليهم أن يصبروا لمعاناتهم، يا الله ما أعظم مصيبتنا، نُشرد في غلس الليل ونحن نساء نمضي لا نعرف في وقتٍ أو أي مكان سنلاقي حتفنا.

أخذني الخيال إلى الخيمة التي تصدقت علينا بها المنظمات الإنسانية، وكان العمل هو الرمضاء التي استجرت بها من النار، من الساعة الثامنة صباحًا حتى التاسعة مساءً وأنا أعمل، فلما أعود إلى الشقة التي اشتركت بها مع إحدى عشرة بنت في عمري، لكي تتوزع قيمة الإيجار على الجميع ويقلل على الواحدة، جذبتني على حين غرة صاحبة العمل، وصرخت بوجهي أنتِ عاشقة؟

- انتبهت مذعورة، نعم سيدتي.
- لا مكان للعشق هنا.
- أيّ عشقٍ تقصدين.
- أنتِ شاردة الذهن، ولم تعجبني حالتكِ.

- سيدتي لم أكن عاشقة ولكني تذكرت أيامنا الماضية وكيف كنا وكيف أصبحنا.
- ردت عليّ بأننا أصبحنا عبئًا على الشعب اللبناني.
- لمَ حصل كل هذا!
- كفوا عنا، إتركونا لنعيش.
- وهل نحن الذين منعنا عنكم العيش
- أجل انتم، فقد أصبح اللاجئون السوريون نصف عدد سكان لبنان.

كان العمل في محل الملابس هو الوسيلة الوحيدة التي تخفف عني الشعور بالضيق في لبنان، فأنا كريمة النفس وتأبى نفسي أن يمسها الذل والهوان، هكذا رُبيت في بيت أبي، فكنت أعمل بجد وطاقة لا تفتر ولم أشكُ من ألم أمام ربة العمل أبداً، كانت هدى أقل ذكاءً مني، ودومًا ما كانت تسمع الإهانات وبعض الشتائم من ربة العمل، الست ليلى تطلب مني أن أُعلمَ أختي وتطلب من أختي أن تكون أكثر معرفة ودراية بشؤون العمل، كنت واقعة بين أمرين بين أختي وصاحبة المحل، أريدُ من أختي أن تكون ماهرة ومتقنة لعملها حتى تتجنب لوم وسخط الست ليلى، ذات يوم وفي ظهيرة أحد الأيام أقبل شابان يبدوان متمردين، ذلك من هيئتهما وكلامهما البغيض، كانا يمران على الشارع الذي نعمل به، وصادفت عين أحدهما عليّ، الذي كان واقفًا

يرتب الملابس ، وينظر لها وهي في الأجسام البلاستيكية، أختي ذهبت لتجلب لنا الغداء، بعدما ذهبت صاحبة المحل، لترتاح فترة الظهر، حالما رآني هذا الفتى، وإذ به يتفاجأ، كمن صعق بصعقة كهربائية، يتفق مع صديقه على افتراسي، وبالفعل أقبلا على المحل، قال أحدهم والذي مال إليّ:

- مرحبا.

- ابستمتُ بكل لطف، مرحبـًا بك.

- من أين هذا القمر.

- خجلتُ وأطرقت ولم أُعلق على كلامه.

- لكنه يتمادى أكثر وحاول أن يلمس يدي، فمضيت هاربة إلى داخل المحل.

- أدركني وأخذ يخاطبني، لمَ الخوف حبيبتي، هل أبدو هكذا وحشـًا مخيفـًا

- بدأتُ أبكي وأرتجف منه وازداد خوفي، عندما بدأت أشم رائحة الخمر تفوح من فمه، ماذا تريد أخي.

- أريدكِ أنتِ.

- وماذا تريد مني.

- ليلة واحدة لأروي غليلي.

- صرخت، لكنه لم يعبأ بهذا الصراخ، وحاول أن يخلع حجابي ولكني أفلتُ يدي منه، وبادرت مسرعة إلى حديدة، ضربته على رأسه ويديه، وظهرتُ كأني أسدٌ هائجٌ، ليلتهم

فريسته ولما رأى زميله ما حصل بصديقه أخذ مني الحديدة وضربني على متني حتى أسقطني وأخذ يركل بي حتى كاد أن يُكسر عظامي.

- رجعت هدى حاملة الغداء، رأت ماذا حصل بي، صاحت بأعلى صوتها، ورمت بنفسها عليّ.

حاولا الهرب، لكن الناس تجمهرت عندهم ووقفوا مشدوهين، لحظة وأخرى حتى أقبلت سيارة الشرطة، أخذتنا جميعـًا، ولما هم الشرطي ليأخذني بادرته: أقسم أني لا أقوى على النهوض، فأضلاعي تؤلماني وقدماي لا تقوى على النهوض، لكنه بادر بسحبها من يدها عنوةً، وسار بها زحفـًا وهي تصيح من الألم الذي ألحق بها، أغلق المحل بعد أن أوصت هدى أن تغلقه لئلاّ تغضب السيدة ليلى، مضت بنا سيارة الشرطة إلى المركز، ليرى القانون رأيه بما حصل، يُقيّم القانون من المخطئ ومن المصيب، بدأ هذان الشابان يدافعان عن نفسيهما بلهجة الواثق المطمئن، واكتفيتُ، بأن شرحت للضابط ماذا حدث، لم أتصنع الكذب والحيلة، لأني كنت مكسورة الجناح، سألني الضابط أنتِ سورية؟

- نعم.

- يمط بشفتيه، لكنكِ بالغتي في الاعتداء عليه.

- تعجبت من هذا القول، فقلت: إنهما تعرضا لي، بأفحش القول والفعل.
- وهل لديكِ دليلٌ على ادعاءكِ.
- وهل تحتاج إلى دليل أكثر من هذا ، وأشرتُ إلى جسدي الملطخ بالدم!
- يطرق، يأمر بأن أُودع في السجن، ريثما تكمل الإجراءات.
- دخلت السجن لأرى كم من الظلم الذي لحق أغلب الناس.

كان الضابط صلباً خشناً في كلامه معي، بقيت أستميل وده، لينظر إلى حجم ما لحق بي من تمرد ووقاحة من هذا الفتى، لكن القانون يرى إني قد اعتديت عليه، ولا يوجد عندي دليل أُثبت به إنه هو من تعرض لي! قرر الضابط بعد أن استمع إليهما أن أودع في السجن وخرج الشابان، بمجرد اتصال أجراه أحدهما لوالده الذي كان رجل أعمال معروف، ويتمتع بمعرفة ووساطة قوية مع مدير القسم، خرج الشابان لا يلويان على شيء وبقيتُ أنا التي لا تملك إلاّ ربها فلجأت إليه مبتهلة متضرعة ليكشف لي كربتي ويساعدني في إطلاق سراحي، أدخلت إلى الموقف، وقد اقشعر بدني فكيف لي، أن تطأ قدماي مكاناً كهذا! لكنها الحياة وتقلباتها، قد فعلت فعلتها فينا، وجدتُ الكثير من الشابات التي هنّ بعمري، كنت خائفة وأرتعش من النظرات التي ترمقني، السجينات

كن ينظرن إلى هذه إليّ بعين تقطر شزراً، لكني اطرقت وبقيت على هذه الحالة من التجاهل، لكي أتجنب مشاكسة إحداهن، ما هي إلاّ بعضُ ساعة حتى زحفت إليّ إحدى البنات ، وأخذت تكلمني بصيغة التعارف:

- ماذا ذنبكِ؟

- رفعت رأسي ونظرت إلى مصدر الصوت، إنني سورية.

- ماذا! جوابي زاد من فضول باقي السجينات الذي كن يترقبن الحوار.

- نعم، ذنبي الوحيد أني لا أملك وطني الذي فقدته فبقيت أعاني ألم الغربة والفقد.

- من أي المدن أنتِ؟

- حلب الشهباء، حلب العظيمة، حلب الإباء، حلب العزة والكرامة.

- تعجبت البنت التي سألتها من شدة تعلقها بوطنها، كان الله في عونكِ يا عزيزتي.

- بتنهيدة ألم ودمعة، شكراً لكِ.

- لكن ماذا حصل معك حتى وصلتي إلى هنا؟

- ضربتُ أحد الشبان؟

- ابتسمت وابتسمت أغلب السجينات، وكيف يا ترى!

- تعرض لي وكان وقحًا وصلفًا.

- فقط هكذا؟

- ماذا تريدين أكثر؟
- لا يستحق كل هذا، ربما هنالك ما هو مخفي في الأمر.
- لم يكن غير، إنه حاول الاعتداء عليّ، وتعرض لي بالقول والفعل، لكنه تلقى جزاءه.
- إذن هذا اعترافٌ منكِ، بالخطأ والجرم، الذي تستحقين أن تودعي السجن على إثره.

عليها أن تخضع لقسوة وجبروت القانون، أين الدلال والعز يا شام، أين الكرامة والغيرة يا شام، أتسجن نساؤكم داخل الغربة؟ وأخذت أبكي وأصرخ حتى أزعجت المسجونات معي، أخبرتني إحداهن إما أن أكف عن البكاء، وإما أن تقوم بخنقي حتى أسكت إلى الأبد، رضخت لما يملى عليّ، يا ترى أيّ الوساطات ستنفعني، أختي؟ أخي؟ صاحبة المحل؟ القانون؟ لكني فوضت أمري إلى ربي ورضيت بما كُتب عليّ ما دام بعينه.

رحماك يا رب، دماغها يؤلمها، وأضلاعها قد تضخمت من فرط الركل وسيقانها لم تعد تحملها جراء ما تحملت من ضرب مبرح من هذا الشاب.

بقيت ليوم وأخر حتى أدركها الفرج، تعلمت من السجن، إن البشر يشارك في ظلم بعضهم البعض، وإن البشرية تعاني من ظلم القانون والعرف قسطًا كبيراً، هذين اليومين، التي قضتهما في السجن، جعلتها ترى كم من المعاناة والألم

لأقرانها، إنها ترى إن المرأة قد أُهينت كرامتها وابتذلت، أهذه هي الحضارة الحديثة، التي خلفت للإنسان أبشع الظلم، إنه الاستعباد الأقسى والأمر، لم تأكل طعام السجن قط، كان قلبها معلقًا بأهلها، كيف هم الآن لو أدركوا ما حصل لأختهم، يا ترى هل أنبأهم قلبهم أم الحرب والأزمة صرفتهم عن التفكير بها، وبدأ الجميع ينظر إلى نفسه ليجنبها سوء العذاب والمحن، يأتي اليوم الثالث ويفرج عنها، خرجت ولم تعرف ما ذنبها وماذا جنت؟ اكتفت بالحمد والشكر لله على كل حال، مضت مع أخيها وأختها، بعد أن تبادلا الدموع طويلاً .

أُعجب بها هذا الضابط، وبدأ يكن لها المشاعر المرهفة، كانت هي لطيفة في كل شيء بها، قد تأسر قلب أحدهم فور رؤيتها لما تملك من جاذبية كبيرة، لكنها لم تمكن نفسها وتبذل روحها لأي أحد، حاول إغراؤها بالترغيب تارة وبالترهيب طوراً، لكنها تملكت نفسها، وعصمت روحها من الانجرار، لأي طارئٌ يعترضها، وبالفعل انتظرت حتى قرار الإفراج عنها، كانت ملتاعة أشد ما تكون اللوعة، ترى أخاها وأختها وقد إعتصرتهم الخطوب جراء ما حصل مع أختهم، ولكن ليس في اليد حيلة سوى الرضوخ والشكر لكل ما حدث.

أقبل أخي علي الذي لحق بنا نحو لبنان، ليودعنا ويمضي بعدها نحو أوربا، هربوا قبل اشتداد ضراوة المعارك ،لأن قوى الأمن والجيش لم تسمح بخروج أحد، لأنهم بحاجة ماسة إلى الشباب، لكي تدافع عن الوطن.

بقي معهم مدة قصيرة، لم يتحمل عذاب اللجوء وذله، قرر كما الكثيرون من الشُبان أن يتجه إلى أوربا ليعمل هناك، أصبحت تلك البلدان هي المأوى للإنسان، أراد عليّ أن يودع أختيه وأخاه سامر، أخي: أوصيك بهاتين الوردتين أن تبرهما وتبقى معهما.

- وأنت.

- سأذهب.

- إلى أين.

- بعد صمت وحسرة، إلى كندا.

- ماذا!

- أجل أخي سأذهب لعلي أستطيع أن أجد عملاً مناسبًا لي وعندها أستطيع أن أواصل دراستي.

- لكن يا أخي...، ثم يصمت يائسًا ضاربًا كفًا بكف.

- أمضِ أخي وأتمنى لك كل التوفيق، عسى أن يتغير حالك وتحققَ حلمك الذي كنت دومًا تتوق إليه، أذهب مصحوبًا برضا الله تعالى.

- ونرجس وهدى.

– لا تقلق بشأنهما، سنكون معنا حتى آخر العمر، ولن أتركهن حتى تفارق روحي جسدي.

وهكذا ودع الإخوان بعضهما البعض، وأقبل علي على أُختيه مودعـًا، بكى الجميع بكاءً حاراً، ذرفت الدموع لهذا الوداع الذي لم تكن تنتظره نرجس، لكنها لا تستطيع أن تقف بوجه أخيها، تركته يمضي مرتاح البال فيما عزم عليه، تتمنى أن ينال إخوتها قسطـًا من الأمل لكي يعيشوا حياتهم منعمين البال، وفي ليلةٍ قاسية عليهم لكنهم تجرعوها حتى لا يبقى ضمير أخيهم يؤنبه، مضى عبر البحر مع مجموعة من أصدقائه متجهين نحو تركيا، لكي يجدوا ما فقدوه في وطنهم، على قاربٍ تهيأت مجاميع من الناس هاربين بأرواحهم من ذل اللجوء والموت المحتوم في أرضهم، وهكذا ذهب أخٍ آخر إلى حيثُ لا تعلم هل سيجمعها القدر به أم سيفرقها فرًاقـًا أبديـًا، وبقيت طوال ليلتها تبكي وتنحب ولكن من يسمع ذلك النحيب ومن يسمع لذلك القلب الحزين، عيونها انتفخت من فرط بكاؤها، مضى علي وتبعته أختها التي ذهبت مع زوجها وأطفالها قاصدين تركيا، ليذهبوا بعدها إلى أوربا لكي يخلصوا من هذا الدمار، وكالعادة أصبح المواطن السوري مرفوضـًا من كل دول العالم! يا الله ما أقسى ما يعانيه السوريون! فلا الذين بقوا مع النظام مرحبٌ بهم ولا الذين أُجبروا على أن يكونوا معارضة

مرحبٌ بهم، وهذا يفسر الواقع الحقيقي من إن الأزمة إذا وقعت في بلدٍ ما فإنها تصيب البلد بكامله وليس جزءاً منه، وأتاهم نبأ شهادة أخاهم ، رامز الذي لاقى مصيره في المعركة التي حدثت على مشارف حلب ، واستقبلوا مصرعه بألم ما بعده ألم ، كان صدمة تضاف إلى صدماتهم التي فُجعوا بها منذ بداية الأزمة، رحل هذا الضابط الشجاع، كما رحلت قريبـًا عائلة أختها رقية.

أعلنت أمريكا على لسان رئيسها، بأنها سوف تشن حملة عسكرية بما أسماها الرئيس بالضربة، ولكن أمريكا وقعت في مأزق، جعلها تضرب بكلام الرئيس عرض الجدار، ولم تكن هناك أية ضربة، لأن أمريكا أدركت بعد دراسة مستفيضة ، إن الضربة لإسقاط الحكومة، ستأتي بالضرر عليهم، لذلك لم تحصل أمنيات كثير من الذين تمنوا هذه الضربة، إن الجيش كان هزيلاً ومكسوراً، فهو يقاتل على جميع الجبهات، بوسط دعم وإعلام ضده من كثير من دول العالم، ولكن المفاجأة التي تعرض لها الجيش الحكومي هو إن عدداً من الضباط انضموا إلى ما يسمى الجيش الحر الذي هو الجناح العسكري للمعارضة، وهذه المحنة قصمت ظهر الحكومة، وبالفعل مال كثير من القادة وذلك بعدما رأوا إن الحكومة بدأت تبالغ في اضطهاد المدنيين العزل ولم تفرق بين المسلح والإنسان المدني، الذي جعل موقف رئيس

الحكومة السورية صامداً وبموقف المظلوم هو إن أعداءه كانوا من المتشددين والمتطرفين والمدعومين من دول تريد العداء لسوريا وتدميرها وهذا مما جعل موقف الحكومة قويـًا أمام عيون تلك الدول وأجنحتها العسكرية، القاعدة وداعش والنصرة وجيش الإسلام وغيرها التي استقرت بثلث المساحة السورية، ثم إن الجيش الحر كان باستطاعته أن يسقط الحكومة بغضون أسبوع، لولا تدخل حلفاء النظام الحاكم، بصورة ميدانية عسكرية، جعلت النظام يتنفس الصعداء ولو قليلاً، سألت أخي عن المسبب الأكبر لهذا الأزمة؟

- الجميع.

- كيف يا ترى؟

- الحكومة والمعارضة.

- ماذا!

- لو إن الحكومة استمعت إلى المتظاهرين، وفضلت الاستماع إليهم وتحقيق مطالبهم بسرعة، بدل رميهم بالرصاص الحي، لكان أفضل وأكثر جدوى، ولو إن المعارضة لم تُصعد من لغة الحرب والسلاح لربما لم يكن ما حدث.

- ولكنهم لجأوا إلى السلاح بعد أن رأوا أنفسهم إما أن يُقتلوا وإما أن يدافعوا عن أنفسهم، فهم قد وقعوا بين حجري الرحى.
- أفهم منكِ إنكِ معارضة يا نرجس.
- لستُ معارضة ولست مع النظام.
- مع من إذن، ربما تكوني مع داعش أو جبهة النصرة، ويضحك ملأ شدقيه.
- أنا مع سوريا حيثما تكون، أنا مع وطني وشعبي، ويسوؤني أن أرى الدم السوري يسقط بهذه الصورة.
- فرضٌ خط بالقلم وقدرٌ مقدر كُتب على السوريين أن يعيشوه.

يا له من قدرٍ مشؤم على سوريا، الدم السوري واحد، الإنسان السوري واحد، الأرض السورية واحدة، وطننا يجمعنا، ليجلس أطراف النزاع مع بعضهم ويتداولا المشاكل ويسعان لحلها.

- يضحك لسذاجتها، أحسنتِ أيتها الخبيرة.
- أتهزئُ بي!
- بالتأكيد.
- لمَ.
- إنكِ تتصورين إن الأمر الآن بيد السوريين؟
- بيد من إذن؟

- إن السوريين ربما أخر من لديهم مفاتيح الحل، الحل يقع بين الدول العظمى التي تدعم هذا الطرف أو ذاك، خرج الأمر عن السوريين وأمسى بيد أعداؤهم.
- رحماك يا ربي، نريد أن نعود إلى وطننا، فلقد مللت حياة الذل واللجوء، أريد ان أعود إلى منزلنا، أريد أن أنام على وسادتي التي اشتقت لها، أريد أن نجتمع جميعاً على مائدة الغداء والعشاء ونحن نعبث ونمزح ونضحك ويقومٍ كلٍ منا وهو فرحٌ مسرور
- أحلامٌ، يا حبيبتي هذه أحلام، فلن نعود إلى وطننا وإن عدنا لم يحصل ما تحلمين به، سنعود وقد مزقت الأزمة كل مفاصل الحياة فينا.

تبكي وتأسى لهذه الكلمات، مازالت تعمل كالخادمة، وهي التي أنفت نفسها، أن تعمل هكذا عمل، لولا قلة ذات اليد والمصير، الذي خُط عليها، أخوها عليّ هاجر إلى كندا، ليعمل في محل سوبر ماركت، وقد ضاعت أحلامه في دراسة الطب والنبوغ فيه، واكتفى بأن يعمل، عسى أن تنجلي الغمة عن سوريا ويعود إلى ربوعها، ليحقق ولو بعض أحلامه التي بقيت هاجساً، يلحُ عليه ويطارده في صحوه ومنامه، شبان بعمر الورد أنفت طيبتهم وغيرتهم، أن يشاركوا بالقتال، بين أبناء الوطن الواحد، ففضلوا الهرب واعتزال الأزمة حتى تنقضي، لأنهم لو بقوا في داخل الوطن لتحتم عليهم أو

لفرض عليهم أن يكونوا مع جهةٍ من أطراف الحرب، لأن مناطق سوريا أصبحت عبارة عن دويلات كل فصيل أو كل طرف لديه مساحة جغرافية يسيطر عليها وطبيعي أن يكون الناس معه لأن السلاح فوق الرؤوس موجه!

قررنا العودة ولو على الأنقاض، الأرض تعني الكثير بالنسبة لمن يحملون هموم الوطن وضميره الحي، طلبت من إخوتي الرجوع إلى الأرض ليعيدوا زراعتها ولكني فوجئوا بأن أرضنا أصبحت خربة لا حياة فيها، بعد ضغوط كبيرة وإلحاح أكبر، وافق إخوتي بأن يعودوا إلى حيث وطننا ولكن هل سيسمح وطننا لنا بالدخول أنا وأخوتي، كنت أخشى على إخوتي من الحكومة أن تأخذهم إلى الجيش للقتال، ولكني فوضت أمري إلى الله ليحل لي هذه المعضلة الكبرى، تساءلت هل سنرى الحياة، يا ترى هل الحياة تمنح للبشر مرتين؟ ولكن استحالة ذلك جعلني أتيقن من المستحيل، حتى إن رجعت الظروف إلى الوراء فمحال أن تعود كما كانت بصورتها الحقيقة، إذن التبدل والتغير كان واضحًا وطبيعيًا أن يسري في سنن الحياة، ما بعد الحرب لا يشبه ما قبلها، الحرب الأهلية غيرت كثيراً من المعادلات، وغيرت كثيراً من النُظم، فالناس تغيرت كثيراً والطبائع بدأت تُستحدث وبدأت تتقلص قيم الشام وتدخل قيم دخيلة وغريبة على السوريين نتيجة المد الذي احتل سوريا

أثناء الحرب، دول الشر ما كان يروق لها أن تبقى سوريا صامدة بقواها فعمدت إلى التخريب ما وسعتها الحيل والظروف إلى ذلك.

أقبل عام ٢٠١٨ والذي اعتبره الكثيرون إنه عام انتصار الحكومة، لأنها استطاعت ان تفرض قوتها وسيطرتها على اغلب المدن، وبقيت صامدة طوال الأزمة، التي هي أصعب وأقسى أزمة عرفها العالم بأسره، إنها محنة وأيُّ محنة، لم يخرج منها أحدٌ منتصراً، الذين انتصروا في هذه الأزمة هم أعداء سوريا، نعم الأعداء فقط انتفعوا سواءٌ الذين تحالفوا مع الحكومة أو مع المعارضة أو مع الجماعات الإرهابية التكفيرية، انتفعوا بأنهم مزقوا سوريا شر ممزق، وربما لن تعود كما السابق، لأن الدم سيكون معادلة صعبة في نسيان الأزمة، وسيبقى الجميع يذكر قتلاه كل آن ويحن لهم، لم ينتفع السوريون أبداً، بل خسروا كثيراً، خسروا شعبًا وأرضًا، خسروا نسيجهم الاجتماعي، خسروا لُحمتهم، التي إن رجعت فلن ترجع كما كانت، قررتُ بعدما طفح الكيل بشوقي وحنيني إلى مدينتي التي عانت ما عانت من الحرب، ولكني سأعود مع أخي وأختي فقط، سأعود إلى منزلٍ دُمر بالكامل، قبلتُ ولو أن نفترش الأرض ونلتحف السماء إذا كان ذلك في بلدنا، وبعد أن انجلت الغبرة والضباب عن سوريا، وبدأت الأوضاع السورية تهدأ رويداً

رويداً، وبعد أن سمعت كثيراً من الإهانات والذل والهوان، قررت أن أعقد العزم وأخبر أخي وأختي بأن نعود إلى ديارنا ولو على الجوع والعطش، وبالفعل لاقت كلماتي قبولاً عند إخوتي واتصلت بأخي علي وطلبت منه أن يرجع إلى سوريا ليبدأ يستأنف حياته من جديد ويعود إلى دراسته أملاً في أن يحقق ولو بعضـًا من أحلامه التي ذبحتها الأزمة السورية بسكين أعمى.

لكني فوجئت بأنه لن يرجع الآن لأنه يخشى السلطات الحكومية فربما سيحاسب وربما سيسجن لأنه لم يجانب أي طرف على حساب طرف آخر، الجميع يعرف إنها فتنة، المعارضة سورية والحكومة سورية والجيش الحكومي سوري والجيش الحر سوري وكثير من الفصائل المتطرفة سورية، رحماك يا رب ما هذه المحنة، لم أصبحت سوريا هكذا، إنها الفتنة الأعظم في كل تاريخ الشعوب، ولعلها الفتنة التي لن تمحى من ذاكرة السوريين قط، بدل أن يتوجه رصاصهم نحو أعداءهم الذين شحنوهم طائفيـًا وحزبيـًا لكنهم وقعوا أسرى بيد تلك القوى، وبقوا لاحول لهم ولا قوة، أحز بنفسي إني سأُحرم من لقاء أخي علي وإنه لا يتمكن من الرجوع بهذه الظروف، اتصلت بأخواتي وطلبت منهم العودة نحو ديار أبيهم ليعيدوا تلك الأيام الخوالي، لملمت الحقائب وذهبتُ إلى ربة العمل التي عملت معها، وأعطيتها

صورة مشرقة عن الشعب اللبناني وأنه وقف مع السوريين أشرف موقف، وأفهمتها أن ما سمعه السوريون من الشعب اللبناني هو من قبيل تصرف أفراد لا اكثر، وأفهمتها أن الشعب اللبناني محق، لأن السوريين قللوا من فرص العمل لدى عموم الشعب لبنان، وإنهم كانوا حملاً ثقيلاً عليهم، لكن ها قد انجلت الغمة عنهم وسيعودون إلى وطنهم سالمين غانمين، ولكن مجروحين أعظم جرح ولعله لن يندمل قط، أعطتني مكافئة مالية رمزية، وودعتها وداعًا حاراً، ومضيت قاصدة الشاحنة التي ستدخلنا وطننا الحبيب، يا الله أندخل سوريا بسلام وتعود أيامنا حلوة هادئة وناعمة أم هنالك ما نخسره أيضًا!

أختي ناريا قد فكت من الأسر بعد أن أسرها تنظيم داعش، وبعد أن قتل زوجها ذبحًا على مرأى ومسمع منها، لأنه لم يبايعهم ولو تقيةَ، مما أصابها بصدمة بقيت تعاني منها حتى هذا اليوم، ولكنها تتمتع بصحة يمكنها من العيش لبرهة أخرى من الزمن حتى تلتحق بزوجها والذي أحبته حبًا جمًا، ولكن يد المنون عاجلته وفرقت هذين العاشقين عن بعضهما بعض، وأما دلال فهي لاجئة في المخيمات على الحدود الأُردنية والتي سامها الخسف والهوان والعذاب الأليم لكنها نجت من الموت هي وزوجها وأطفالها لكنها لم تنجَ من الذل والقهر والحرمان، وأما فاتن فبقيت تعاني

عذاب الحرمان لفقدها أخوتها وأهلها لكنها كانت أفضل أخواتها حالاً لأنها كانت تعيش في دمشق ولم تتعرض لما تعرضت له كل عائلتها، ولكن مصائبُ أهلها صُبت عليها صبـًا وجعلتها تندبهم ما أشرق الصبح وما أقبل المساء، وما ذكرت أهلها إلاّ ودموعها تترقق على خديها حتى تجف دموعها.

وأما أختي الشهيدة رقية فهي ستبقى في ذاكرتنا ما بقينَّ أحياء، والأخوة مشردين مضطهدين، الحكومة تطلبها لينضموا إلى صفها هم لا يريدون أن يحسبوا على جهةٍ ما، يريدون أن يبقون مواطنين لا أكثر، وسارت بهم الشاحنة حتى أوصلتنا على مشارف الحدود فاستقبلنا رجال الأمن الحدودي موبخين لرجالاتنا، لأنهم تركوا الوطن وهربوا من الموت على أنقاض الدمار والقصف بالبراميل المتفجرة، كان الدخول صعبـًا للغاية، المشكلة التي واجهتنا كيف سيدخل أولئك الشبان؟ تركنا هذا الأمر إلى الله تعالى ليسهل لنا هذه المهمة، وصلنا إلى أول نقطة حدودية وكانت عبارة عن ثكنة عسكرية كبيرة مسلحة بأحدث السلاح، بدأت القلوب ترتجف، فجأةً رأت هدى إنّ ابن جيراننا في القرية كان واقفـًا بالقرب من السيارة، نظرت إليه هدى وقد عرفته وعرفها فهشت بوجهه وهللت عسى أن تنال عطفه ووساطته

بالدخول، بادر الجميع بالنزول حتى يكمل إجراءات الدخول، وصل الدور إليّ فقلت:
- مرحبا أخي حسام.
- ردَّ عليَّ مستفهمًا وكأنه لا يعرفني ولا يريد أن يعرفني، من؟
- أنا نرجس وهذا أخي سامر وهذه أختي هدى.
- لا أعرف من أنتم
- نحن أبناء أبا عصام جيرانكم.
- لا أتذكركم.
- ألهذا الحد وصل الأمر بك، أن تتنكر لأهلك وجيرانك!
- غضب لهذه اللهجة وطلب مني أن أقف بالدور، وأخذوا أخي لإجراء التحقيق.
بكيتُ لهذا الفعل وصرخت حتى أبكيتُ الجميع مما جعلهم يتعاطفون معي ويلبون مطلبي.
الشباب ومن بسنهم أخذتهم قوى الأمن، لغرض التحقيق، وأما النساء والشيوخ والأطفال فقد سُمح لهم بالدخول، وأما الشباب فقد أستأنف دخولهم ريثما تجري التأشيرات عليهم ويتحققوا منهم هل هم ملطخون بالدم أم بريئون، لم أترك أخي وقفتُ أمام ضابط الأمن، أُخبرهُ بأننا خسرنا كثيراً من أجل البلد وأخذتُ أسردُ له أنباء عائلتنا حتى أبكيته وأبكيت كل من سمع، عطف عليّ وجعلني وترك أخي

ومضينا حيث ديارنا، فرحت بإطلاق سراح أخي، ومضينا نحن الثلاث حتى شارفنا على حدود دمشق قاصدين حلب، وبدأت الركاب تبكي وتصرخ لما أصابهم على مدار ثمانية سنوات، فأيُّ لذة بهذا الرجوع سوى إنه يبعد الذل والهوان عنا، كيف نعود إلى ديارنا وقد فقدنا أعز ما نملك، فقدنا أبنائنا، بدأ العويل ولم ينقطع حتى تعبنا، وكنت أبكي على مصير كل إخوتي حتى على علي الذي أخذته كندا إليها ورفضته سوريا ابنًا طموحًا لها!

عدنا والآمال تحدو بنا إلى إمكانية عودة تلك الأيام التي كانت آية من البهجة والحب والسعادة، سأمنا حياة الغربة ولم يكن هنالك حضنًا دافئًا لنا سوى في ربوعنا وتحت سماءنا ودفء شمسنا، كانت الأنباء تصل إلى كل العالم فيما يخص الجرح السوري، ولم كل هذا التخاذل بحق السوريين، رحماك يا رب، رحماك يا رب، رحماك يا رب، العالم يشاهد الدراما السورية وكأنه يستلذ أو تأخذه العبرة والدهشة من رؤية الموت والدمار الذي عصف بسوريا، الاحتلال كان يلبس ثوبًا صريحًا وواضحًا إذ يأتي بجيوشه ومعداته ليغزوا بلداً ما، أما اليوم فلبس الاحتلال ثوبًا آخر بغية التمويه على العالم لئلاّ يُظن بأن هذه الدولة هي محتلة وظالمة لهذه الدولة، فأمريكا عندما احتلت العراق وأسقطت نظام الحكم السائد، فأنها حزمت كل قوى العالم وجمعت

القريب والبعيد والصديق والعدو حتى تأخذ الصبغة المشروعة لتدمير أرض الحضارات ومهبط الأنبياء والمرسلين.

هكذا كانت تردد نرجس في نفسها وترى كيف إن دول الظلام والإرهاب قد عمدت أول ما عمدته في خطتها إن قسمت البيت السوري ومزقت عراه وجعلته مفككا وسعت في سد أية ثغرة بإمكانها أن تصلح من الأمور، تقول نرجس لأخيها بعد أن رأت حجم الدمار والخراب الذي عصف بهذا البلد الجميل:

- الجميع أخطأ، والكل شارك بهذا الموت.

- أصمتِ لئلاّ يسمعكِ أحد ويتهمكِ بأنك معارضة أو فصيلاً ضد الحكومة.

- لن أسكت ولن أقبل أن أنام على الضيم، ويجب أن نقول كلمة الحق وإن كلفتنا أرواحنا، لأن أرواحنا بذلك ستجعلنا عظماء وسنكون معول الهدم الذي يقوض أركان حكومة الظلم والجبروت.

بيتٌ مهدمٌ بكامله، اكتفينا بأن نفترش الأرض، ونلتحف السماء، إن أرض وسماء الشام أحنُ علينا من جنان العالم المزيفة، فتعالوا يا إخوتي لنعيد بناء هذه الدار التي تعود لأيامنا التي مضت، نعمرها ونشد من بناءها وتماسكه حتى تكون عُصية على يد التدمير والخراب، يا ترى ماذا حصل

بجيراننا وأخذت أُعدد اسماء الجيران واحداً بعد الآخر فتناهى إلى سمعي إنهم ما عادوا ولعلهم لن يعودوا، رمتهم الحرب خارج الوطن فأرغمتهم الظروف على البقاء في الخارج، كيف للبدن أن يتنكر لروحه التي لازمته منذ ولادته حتى يومه هذا؟

السوريون سأموا الحياة، لأنها قست عليهم وإستنزفتهم كثيراً، لكن يا أخي لا ينبغي أن يفرطوا بأرواحهم التي أبت ألاّ تفارق الشام وأرض الشام، الخارطة ستُرسم بقلمٍ جديد و يا ليت هذا الرسم بأيدٍ سورية بل هو اليد التيً مزقت نسيجنا الموحد وعملت على تفريقنا بشتى الوسائل، فقلت له بعبارة ملؤها الثقة والأمل: ستعود سوريا مادام في أهلها الهمم والعزيمة للبناء.

دعونا نترحم على أيامنا التي مضت فإنها كابوسٌ مرعبٌ لكنه من شدة طول مدته أصبح هذا الكابوس واقعـًا حقيقـًا له وجوده المادي الملموس، ذهبت نرجس إلى أرضهم وإخوتها معها وكانت رقية تخبرها بأن المعالم مهدمة كيف لها أن تعود من جديد، ولكن نرجس تصمم على إنهم خُلقوا ليعيشوا ويجب أن يعيشوا وبهم سيعقد الأمل، وصلوا إلى أرضهم حالما وقعت عينهم عليها أجهشوا بالبكاء والنحيب على ما اعتراها من تخريب ولكنه طفيف وبإمكانهم عودة الحياة لهذه الأرض وجعلها تدر عليهم خيراً وثمراً من

جديد، أرضهم كانت مصدر رزقهم الوحيد ولديهم ارتباط روحي ومعنوي بها، لذا فإنهم اتفقوا على تعميرها قبل تعمير منزلهم، وفي اليوم التالي بدأت مهمتهم في إحياءها وزراعتها من جديد.

أخواتها عدن من اللجوء إلى ديارهن ولكن كما كان بيتهم الكبير مهدمًا، الكل كان مراهنًا على استحالة العودة لكنه تفاجئ بانجلاء الغمة عن سوريا، وكانت نهاية الغمة مصدر بهجة وسعادة وقوة لعزيمتهم، عادوا والعودة ميمونة والأطفال الذين، انقطعوا عن الدراسة طوال الأزمة، بدأوا يستعدون لاستقبال عامهم الجديد بنفس وثابة وطاقة جبارة لاستئناف المسيرة التعليمية، محنة التعليم كانت قاسية لأن الإرهاب حول المدارس والمرافق المدنية إلى أوكاراً له، وسعى إلى تدمير دور العلم التي يستنشق السوريون منها معنى المستقبل والنبوغ فيه، أيامٌ سوداء قاتمة، مضت على خير وإلى غير رجعة، وستعود أرض الشام إلى روح الياسمين وإلى طبيعتها النرجسية، الورود والياسمين عادت إلى الحياة وعاد إلى أريجه الندي، تبتسم ندى لنسمات الهواء الذي طل على حلب، ويؤشر على يومٍ جديد، هل سيحمل هذا اليوم بارقة أمل لاستشراق المستقبل القادم بصورةٍ أجمل من السابق، أم إننا سنبقى أسيري الماضي الذي ولى ولن يعود، علينا أن نمضي ونستقبل الحياة بكل ما

فيها وإن كنا مرغمين عليها وعلى قساوتها، فهي تمضي ونحن ماضون ولكن سيبقى أثرنا فيها باقيًا يعطي معالم حياتنا ويسرد لأجيال القادمة قصة أبناء سوريا في محنتهم وكيف إنهم تجاوزوها بصبرٍ ولا أعظم.

في ساعةٍ من الليل البهيم، ونحن داخل الخيمة، نصبناها لتستر جلودنا من النظر إلينا، نمنا على وسادة، كانت عبارة عن حجارة غُلفت بقطعة قماش لكي لا تؤذي الرأس، اكتفينا بالستر والاستقرار بأرضنا، لأنها خالية من الذل والمهانة والغربة القاسية، نمتُ وكنتُ متعبة أشد التعب وأضناه، بدأتُ بأحلامي التي ما انفكت تزيد من روعي وخوفي، فرأيتُ ذات الحُلم وهو إن الوحوش بعد أن أخذت أجزائي، تركتني أعاني الوجع والألم، بقى جسدي مشوهًا لأنه فقد الكثير من أجزاءه، رأيتُ إن الوحوش حالما رأوا إن لا فائدة ترجى مني فتركوني ومضوا إلى سبيلهم، أخذتُ أعتبُ على أعضائي لكن لم أجد من بكى أو تباكى على المصير، فلا الأعضاء رُكبت في جسدٍ يستحقها ولا عادت إلى جسمها الحقيقي ومكانها الذي نَبتت فيه، جلست من نومي مرعوبة ولكني أدركت سر الترابط في ذاك الحُلم وهذا، نعم قُطعت سوريا إلى أجزاء ولعلها لن تعود كما السابق، إن الجميع تكالب عليها لكي يأخذ نصيبه من خيراتها وثمراتها ولكنهم تركوها مجروحة جرحًا عميقًا لأنها فقدت الغالي

والنفيس من ممتلكاتها، فقدت أرضًا وأرواحًا، فقدت مستقبلاً ضاع من شُبانها، حنانك يا الله ألطف بسوريا وعد بها إلى الوراء قليلاً حتى يتعظ أهلها بما حصل لهم، لكن تأبى السماء أن تُغير ما بقومٍ حتى يُغيروا ما بأنفسهم!

سباق محموم، وخطط معدّة لها، وطاقات تستنزف، و إعلام مهرج يطبل وجمهور لا يعرف أي خيار يختار.. أين السبب يا تُرى؟ الكابوس الذي جثم على صدر السوريين... جعلني أفكر أن لا أمل يرجى.. ولكن لا حياة للشعب السوري إلا بالصمود والتحدي والإرادة الوطنية.. وعندها سينجلي الغبار وتسقط الأقنعة وتشرق شمس الانتصار فتتهاوى خفافيش الظلام وتحلق طيور السلام في سماء دمشق معلنة انبلاج فجر جديد، وكشف الغطاء للجميع بأن هذه الخفافيش لن تقوى على أن تكسر الشعب السوري، تعرت هذه الغربان وانكشف زيفهم للعالم أجمع، عاد الياسمين إلى أريجه، وعادت سوريا مكسورة الجناح لأنها فقدت كثير من أبناءها، آن الأوان للطيور المهاجرة أن تعود إلى وطنها الأم لتحلق في سمائه، ناشرة الحُب والود والسلام.

انتهت